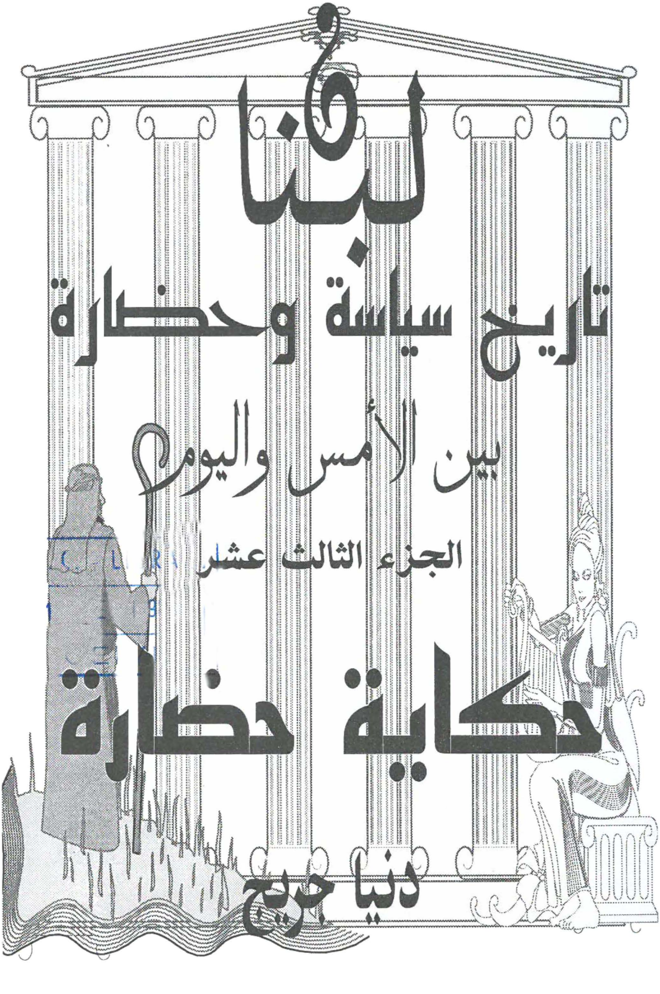
موسوعة لبنان



تاريخ، سياسة وحضارة

حكاية حضارة



لبنان

تاريخ سياسة وحضارة

بين الأمس واليوم

الجزء الثالث عشر

حكاية حضارة

دنيا جريج

حكاية حضارة

كثيراً ما نستمتع بالقشور، نعشق الزهرة. . . نستلذّ بأكل الثمار، وننسى أن هناك جذوراً تضرب بعيداً في التربة هي التي أنتجت تلك الثمار. . . وأبدعت تلك الزهرة.

مصيبتنا أننا أصبحنا سطحيين في كل شيء. . لم تعد تشدنا الأصالة. . حضارة الحديد والاسمنت المسلح، حولتنا إلى أناس تعشق السطح، ولا تدرك كم في الأعماق تختبيء اللالىء والدر الثمين. . .

بقعة الضوء التي اسمها لبنان. . . ليست فقط الأبنية الشامخة، . . والشوارع البراقة. . والشاطىء الرملي على هذا الأزرق المتوسط. .

لبنان آخر، . . يختبىء تحت هذا اللبنان. . حضارة عملاقة تشهد أن هذه الأرض حين كانت مسقط الضوء وملعب النسور، وحاضرة العالم والمعرفة، . . كانت الظلمة تسود كثيراً من مواقع العالم الذي تمدن أخيراً. .

تحت كل بناء بناء آخر. . . عتيق كهذه الأرض. . وتحت كل حجر كلام كثير، . . ونجوم استراحت على الثرى المقدس. .

لبنان اليوم. . . لو أنه استمدّ من جذوره نسخ الحضارة والحياة، لكان الجنة التي بها يوعدون. . انقطاع الحاضر عن الأمس، . . والحفيد عن الجدود. . والحديث عن الأصالة، . . جعل حضارة المعدن تتأرجح بين شموخ وهبوط، . . بين سماء ووادٍ سحيق. .

في كل قطعة من أرض لبنان حضارات تختبىء، . . تحف وآثار وفي كل حارة من حاراته العتيقة، قصة وتاريخ. . . وفي كل زاوية من زوايا معابده وكنائسه

ومساجده... يتعبّد الحجر ويحكي في تهجّره وخشوعه عن عظمة لبنان عبر تاريخه الموغل في الضوء.

هذه الزاوية،.. مخصصة للبنان الذي كان.. والذي يشعلنا الأمل بعودته لما كان عليه منبراً للحرية،.. والإبداع الذي يستمد من جذوره أصالة التحديث والبناء..

آثارنا تعود إلى آلاف السنوات قبل الميلاد.. هي امتداد لحضارة الخصب والماء،.. الكنعانيون تركوا بصماتهم،.. والفينيقيّون،.. وبعدهم عبر اليونان والرومان... قوافل عديدة عبرت هذه الأرض.. وخلد ذكرها الشعب الذي كان،.. ولا يزال يقتطع نجوماً،.. ومن البحر منارات وأشرعة وأقمار.

قليلة هي الآثار التي اكتشفت.. ومن هذا القليل نهب وسرق الكثير،.. الفرنسيّون سرقوا،.. والأتراك،.. وغيرهم الكثير.

لكن هذه الأرض التي هي كنز العالم،.. ومسقط رأسه لا تزال تحتضن في رحمها معالم لا تعد ولا تحصى من شواهد الرقيّ الحضاري والإنساني.

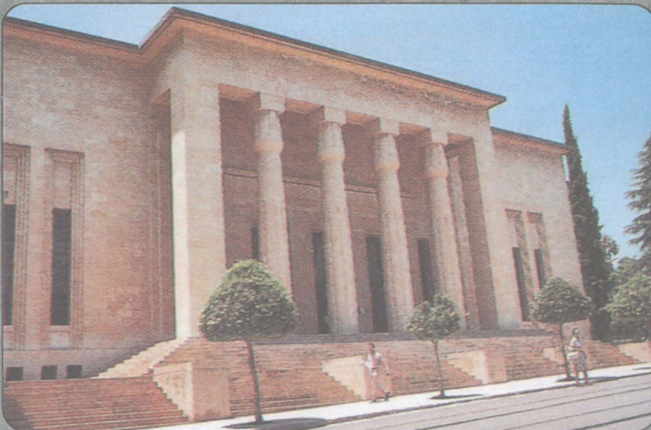
ليس المهم أن لبنان بكامله متحف للأمس.. لكن الأهم أن يسعى أبناؤه إلى احتضان هذا المتحف، وتسعى دولته إلى الحفاظ عليه واكتشافه،.. واستعادة ما استبيح منه.. أليس الحاضر ابن الماضي..

فهل نكون حاضراً بلا أب وأصول..

آثار كثيرة مهددة بالزوال.. لأنها معرضة للفناء.. كل ما تحتاجه الحب،.. العناية،.. الإحساس بأنها أصل اليوم.. وكل مقومات بقائها حتى الآن.. مقاومتها الطبيعيّة التي تكاد تتلاشى تحت ضربات الطبيعة والسارقين والذين يعبثون بالمقدسات.

في زحمة اللامبالاة،.. كدنا نفقد الحاضر.. فهل سنفقد في زحمة اللهو والطيش آخر ما تبقى لنا،.. لبنان الحقيقي الذي يختبىء تحت كمشة تراب.

ملحق الصور



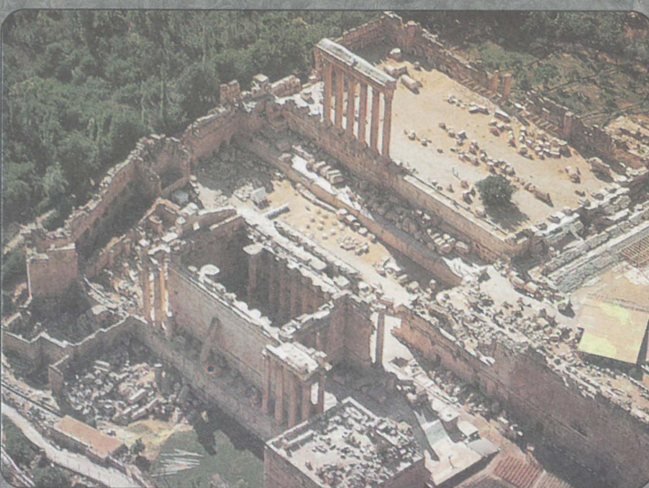
المتحف الوطني



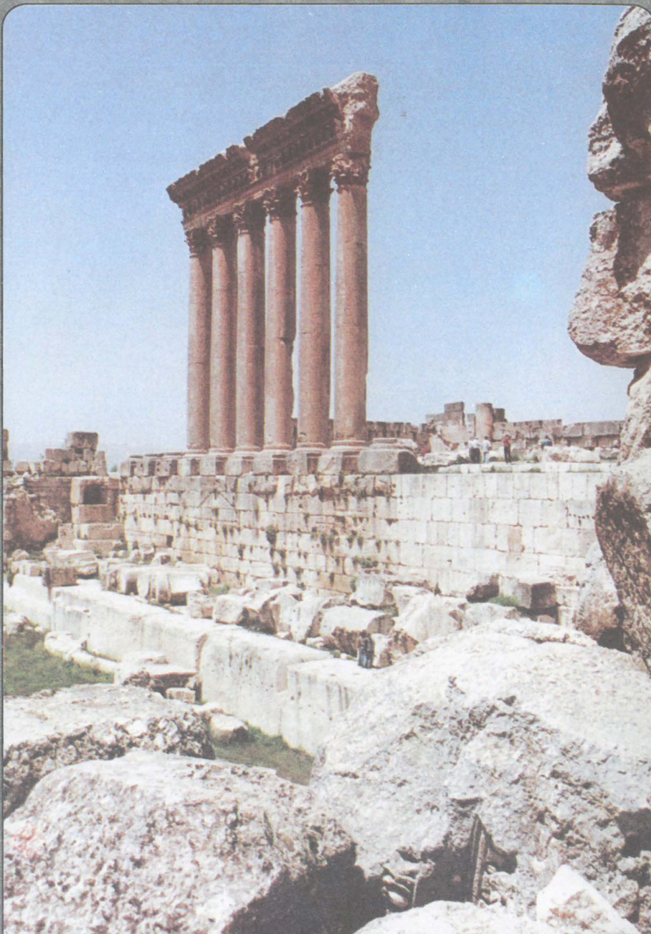
حمامات رومانية في بيروت



إيوانت البهو الكبير في بعلبك



صورة جوية لمعبدي جوبيتر وباخوس



الأعمدة الستة (بعلبك)



هيكل باخوس



الجامع الإموي الكبير



قلعة البحر في صيدا



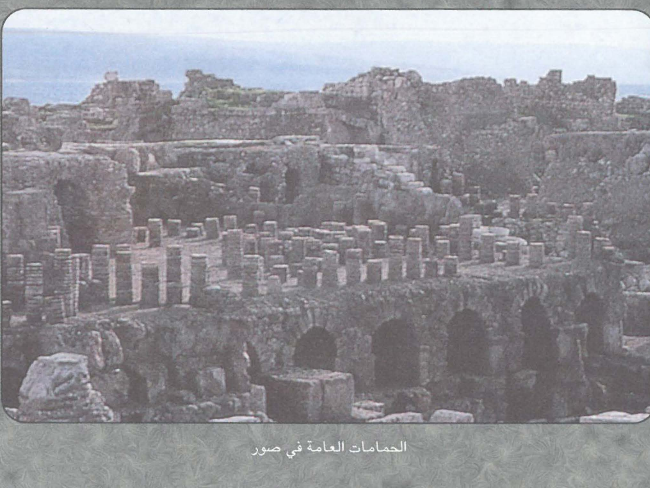
خان الفرنج



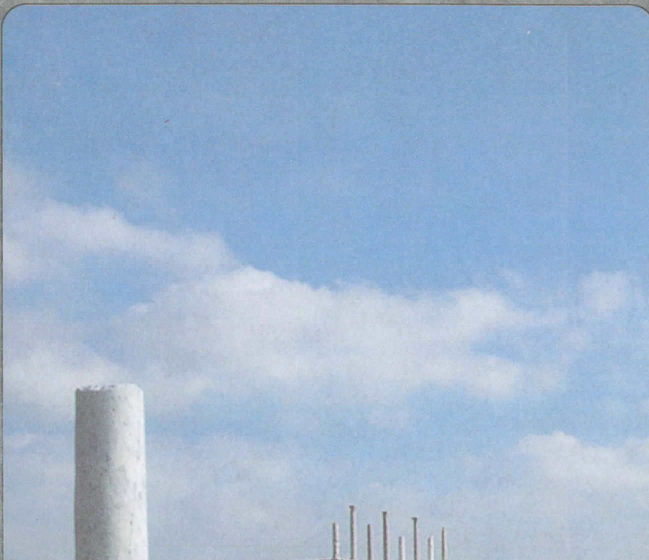
قسم من فسيفساء «الفصول الأربعة» (معبد أشمون)



ناووس روماني في صور



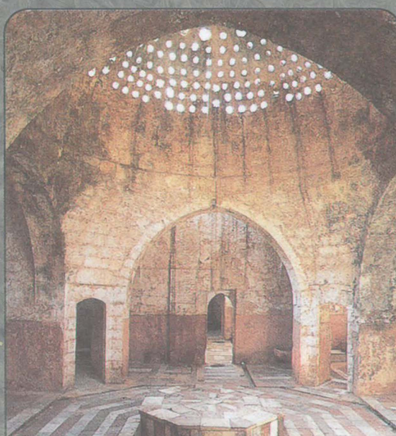
الحمامات العامة في صور



من آثار صور الرومانية



مدرسة وجامع البرطاسي (طرابلس)



الحمام الجديد



قلعة المسيلحة



جانب من قلعة سان جيل



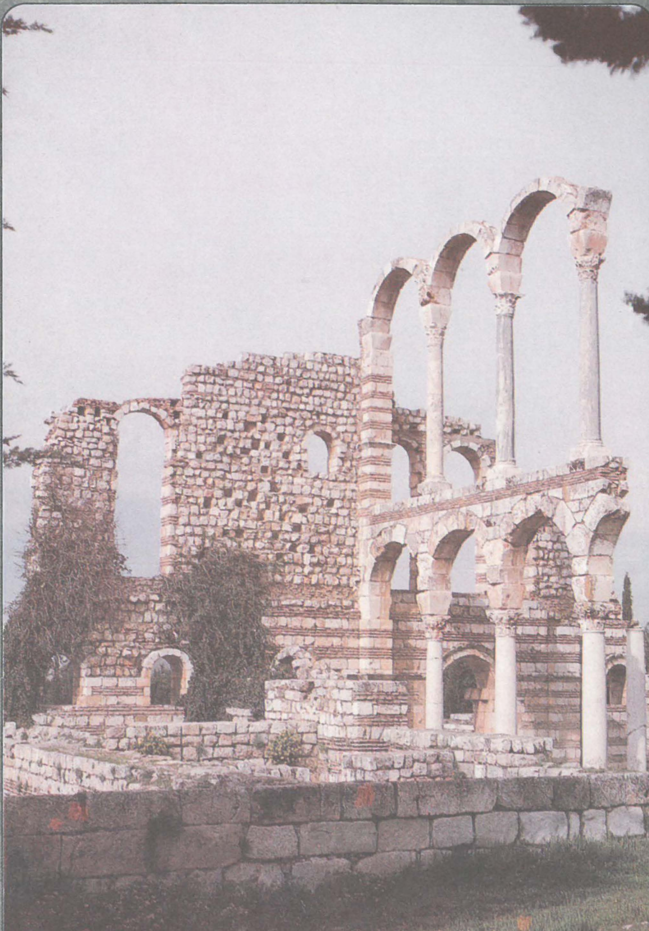
قلعة جبيل



قلعة فقرا



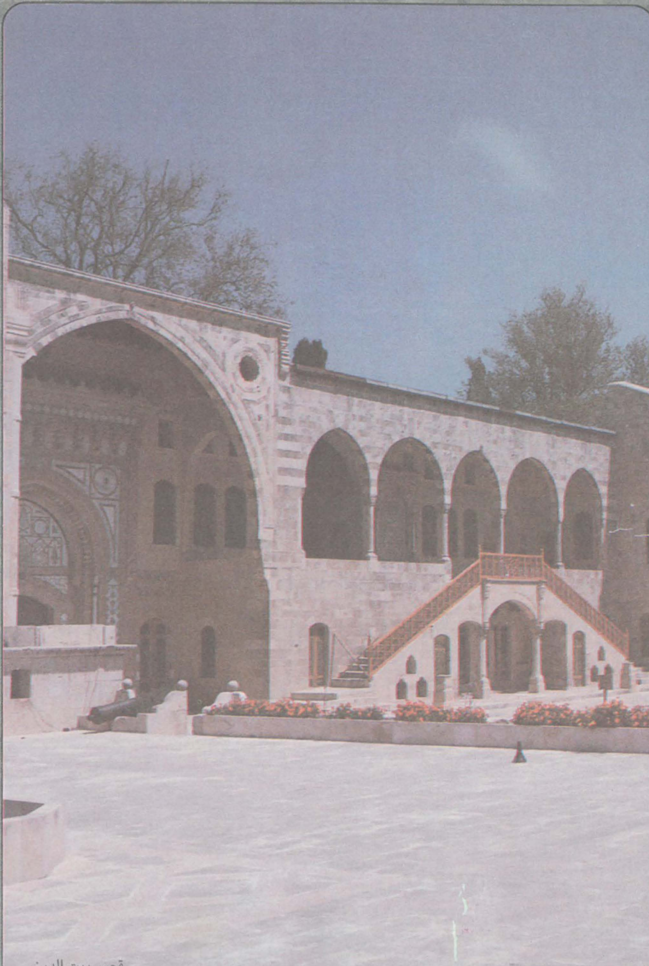
دير القلعة في بيت مري



من آثار عنجر



المصلبيَة في عنجر



قصر بيت الدين

الفصل الأول

بيروت

اختلف الباحثون والمؤرخون حول أصل اسم بيروت وتعددت الآراء حول ذلك، فمنهم من قال إن بيروت هي كلمة كنعانية «بير» نسبة للآبار الكثيرة التي كانت منتشرة فيها، والبعض الآخر يعيد أصل التسمية إلى الإله إيل، أول ملوك جبيل. ومنهم من ينسبها إلى كلمة فينيقية تعني شجرة صنوبر بسبب وجودها بجوار غابة الصنوبر التي لا تزال قائمة حتى الآن.

ويقول الدكتور أنيس فريحة في كتابه «أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها» أن ذكر اسم بيروت ورد في رسائل تل العمارنة كالتالي Be/Ru/TA مرجحاً أن يكون معنى الاسم صنوبرة.

عرفت بيروت كسائر المدن الفينيقية إنسان العصر الحجري الذي كان يسكن مغاورها وكهوفها، ويذكر سترابون في كتاباته أنه كانت توجد في بيروت مغارتان الأولى قرب مصب نهر بيروت، والثانية مغارة الحمام في رأس بيروت. إضافة إلى عثور الأثريين على مصنعين للأحجار الصوانية الأول عند نهر بيروت، والثاني عند الأوزاعي، ووجدوا فيهما أدوات من الصوان نحتت على أشكال فؤوس وأزاميل ومقالع وشفرات ومطارق وغيرها من أدوات الصيد.

مرت على بيروت الظروف السياسية نفسها التي عاشها الساحل الفينيقي كله، فتعاقب على ترابها من الألف الثالث قبل الميلاد حتى أوائل القرن الحالي جيوش الأكاديين، البابليين، المصريين الحثيين، الأشوريين، البابليين الجدد، الفرس، اليونانيين، الرومانيين، البيزنطيين، العرب، الصليبيين، المماليك، الأتراك. وبقيت بيروت مدينة بسيطة بين المدن الفينيقية حتى الحقبة الرومانية.

فكانت بيروت الكنعانية حيّاً صغيراً حول مرفأ صغير في المكان نفسه الذي يعرف اليوم بالحوض الأول في المرفأ الحالي، وكانت متصلة بحرياً وتجارياً بمصر الفرعونية حسب اللوحات التي وجدت في تل العمارنة والتي تعود للقرن الرابع عشر قبل الميلاد. وحسب اكتشاف تمثال حجري لأبي الهول شمال ساحة البرج حين كان بعض العمال يحفرون أساسات مبنى جديد سنة ١٩٢٥، وحفر على هذا التمثال اسم أمنحاتب الرابع وهو أحد فراعنة مصر حكم من ٣٨٠٠ سنة.

وبين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد اتسعت أرض بيروت لتتسع أكثر وأكثر بالحقبة اليونانية ـ الرومانية ـ البيزنطية حتى احتلت مساحة كانت تمتد من المرفأ شمالاً، إلى ساحة الشهداء شرقاً، إلى بناية اللعازارية جنوباً، فشارع المصارف غرباً.

في العهد اليوناني وقعت بيروت تحت تأثير الحضارة الجديدة والثقافة الهللينية واشتهر فيها العديد من الكتاب والشعراء والخطباء، واستطاعت خلال فترة الفوضى التي سادت بعد موت الاسكندر والصراع على السلطة أن تحصل ولأول مرة على امتياز صك النقود وتعوض تأخرها عن جاراتها.

أما مركز الثقل في تاريخ بيروت فكان خلال الحقبة الرومانية ـ البيزنطية حيث احتلت مع بعلبك مركزاً مرموقاً فكانت بعلبك مركز حياة دينية وبيروت مركز إشعاع حضاري. ومما ساعد بيروت على اجتذاب الرومان وجعلها مستعمرة رومانية نجاح تجارتها ودورها كضابط ارتباط بين الشرق والغرب، فكانت أول مستعمرة رومانية في هذه المنطقة أطلق عليها اسم مستعمرة جوليا أوغسطا السعيدة بيروت. وتمتعت لفترة بامتيازات وحقوق كالحكم الذاتي والإعفاء من بعض الضرائب، وحصلت على اهتمام الرومان وحلفاء روما.

وطبقاً للطقوس الرومانية المقدسة، حصل كل من الجنود الرومان المتقاعدين من الفرقتين الخامسة والثامنة، أو الفرقة المقدونية والفرقة الأوغسطية، على حصتين في المستعمرة الجديدة مثلما دلت عليه بعض قطع النقود التي نقش عليها نسرين والرقمين ٥ و٨ باللغة الرومانية.

وحوّل الحكام بيروت إلى مدينة شبيهة بروما، فتم تجهيزها بكل وسائل الراحة والرفاهية من أبنية فخمة وشوارع وحمامات ومعابد.

فاغريبا الأول حفيد هيرودوس بنى بين العامين ٤١ و٤٤ بعد الميلاد مسرحاً غاية في الجمال وملعباً مستديراً للرياضة وحمامات وأبنية عامة وطرقاً تحيط بها الأعمدة والمعابد.

أما أغريبا الثاني فبنى في بيروت سنة ٦٦ قبل الميلاد قصره الفخم مع المسرح، وصك النقود لنيرون ويشهد المتحف الوطني على هذه الأعمال السخيّة، وهو الإهداء التذكاري للقصر الكبير منها زوجة أغريبا الثاني.

وأهم ما اشتهرت به بيروت في تلك الفترة هو مدرسة الحقوق التي كانت أشهر معهد روماني للقانون في الامبراطورية خارج إيطاليا.

شكل هذا المعهد الذي أسسه الامبراطور سبتيموس سويروس بين العامين ١٩٠ و٢٠٠ مركز إشعاع فكري وتشريعي، وكانت مدة الدراسة فيه ست سنوات. ومن الذين درسوا فيه اشتهر إميليلوس بابنيانوس ودومقيوس أولبيانوس.

وشهدت بيرُوت خلال الفترة الرومانية تحول العديد من سكانها من الوثنية للمسيحية حيث تنصرّ العديد من الطلاب الوثنيّين الذين كانوا يتعلمون في مدارس بيروت وخاصة في مدرسة الحقوق.

ويعود الفضل في ذلك كما تقول الأسطورة إلى القديس جاورجيورس الذي قتل التنين في خليج بيروت المعروف بخليج مار جرجس وأنقذ الأميرة في المدينة. ولشكره أقام حاكم بيروت كنيسة فخمة عند مصب نهر بيروت يقوم على أنقاضها اليوم جامع الخضر.

ولكن، على الرغم من كل جمال بيروت التي جذبت إليها أبصار العالم في ذلك الوقت، فقد وقعت ضحية القدر والكوارث الطبيعية العديدة والتي كان أعنفها زلزال تموز ٥٥١ الذي ضرب المدن اللبنانية، ولا سيما بيروت وأحال صروحها أنقاضاً وسكانها أشلاء وترابها رماداً. ويقال أن حوالي ٣٠ ألف نسمة من سكانها قضوا في الزلزال.

وسنة ٦٣٥م دخلت بيروت تحت الحكم العربي، وشاع فيها مذهب الإمام الأوزاعي الذي عرف بسموّ الأخلاق وروح التساهل. وفي أيام عمر بن الخطاب أُعيد ترميمها وتحصينها بالقلاع لحمايتها من هجمات الروم الذين حاولوا عبثاً استعادتها من العرب.

في أيام العرب وعلى مدى خلافة الخلفاء الراشدين ثم الأمويين ثم العباسيين، كانت بيروت تابعة لدمشق واتخذها العرب في ذلك الوقت قاعدة عسكرية.

وفي أيام الخلفاء العباسيين ظهر فيها عدد من العلماء البارزين وكان أشهرهم عبد الرحمن الأوزاعي المتوفي سنة ٧٧٣م. وما زال قبره موجوداً في المنطقة التي تعرف باسمه.

تاريخ بيروت طويل مع الحروب والجيوش التي تعاقبت عليها. ففي سنة ١١٠٢ هاجمتها الجيوش الصليبية ولكنها صدّت. وما أن حل العام ١١١٠ حتى أعاد الصليبيون الكرة بقيادة بدوين الأول وتمكنوا من احتلالها وألحقت بمملكة القدس اللاتينية.

وفي عهد الصليبيين بنيت في بيروت قلعة صليبية ظلت قائمة حتى سنة ١٨٥٦، وكان ارتفاع برجها يبلغ ٢٦ متراً ونصف المتر، كما بنيت أبراج تشرف على المدينة وكنائس لم يبق منها إلا كنيسة يوحنا المعمدان التي بناها الملك بولدوين سنة ١١١٠ وحولها المسلمون لجامع هو جامع العمري الكبير.

أما في أيام فخر الدين الثاني في أوائل القرن السابع عشر فقد أصبحت بيروت عاصمة ثقافية وترفيهية وتجارية مهمة وكثرت مدارسها ومعاهدها وأسواقها ورمم فيها برج الكشاف الذي اتخذت ساعة البرج اسمها منه. وبنى فخر الدين الثاني قصره شمال غرب الساحة وحديقة للحيوانات وقلعة على طرفها من جهة البحر، وأعاد زرع جزء كبير من غابة الصنوبر التي كانت تقطع أشجارها من قبل الفاتحين لبناء أساطيلهم البحرية.

وفي القرن التاسع عشر عرفت بيروت النهضة العربية وتأسس فيها عدد كبير من الجامعات والمدارس.

وفي أوائل القرن العشرين عرفت بيروت أوج ازدهارها العمراني والاقتصادي والفكري وأصبحت باباً مفتوحاً على الشرق. ولكي يتم تجهيزها كمدينة جديدة

أزيلت أغلبية المعالم الأثرية كالخانات والكنائس والجوامع ليحل مكانها التخطيط الجديد الذي ضم الشوارع والساحات الواسعة والمباني الضخمة، والمراكز التجارية والفنادق والمنتزهات وغيرها من المعالم الحضاريّة الحديثة بشكل منظم ومتناسق.

مع هذا التخطيط الجديد انفتحت بيروت على العالم بعدما كانت بلدة محدودة المساحة قائمة على منحدر مربع الأضلاع يحيطها سور وأبواب وأبراج وحصون كلها اندثرت واختفت ولم يبق منها إلا الذكريات المدونة في كتب التاريخ.

الكشف عن كنز بيروت المدفون

جرت أولى محاولات الكشف عن وجه بيروت المطمور والذي يخبىء حضارات العالم القديم من كنعانية ورومانية وصليبية وعثمانية، قبل الاستقلال وكشفت الحفريات التخطيط المعتمد للمدينة الرومانية البيزنطية والحمامات الرومانية مقابل مبنى البريد و٣ ضرائح في منطقة الريفولي تعود للقرن الرابع عشر قبل الميلاد.

وفي العام ١٩٦٠ قامت المديرية العامة للآثار بالتعاون مع علماء آثار فرنسيين بإجراء حفريات إلى جانب كاتدرائية مار جرجس للموارنة اكتشفت خلالها آثار بيزنطية ورومانية. وفي أواخر السبعينات وخلال إجراء بعض الحفريات تم اكتشاف كنز بيزنطي وضع في البنك المركزي وأعمدة رومانية في ساحة البرج، وإلى جانب كنيسة مار جرجس في ساحة النجمة.

تتابع الاكتشافات المتتالية من قبل مديرية الآثار وبعض الأشخاص لم تؤد إلى القيام بمزيد من التنقيب والحفر بسبب الازدحام في بيروت قبل ال ٧٥ ولكثرة الأسواق التجارية وارتفاع أسعار الأراضي، إنما أدت لتوفير معلومات عن وجود آثار تحت مبنى الكابيتول وبنكو دي روما واللعازارية والسراي القديم وساحة النجمة. هذا عدا ما يختزنه باطن الأرض من آثار غير معلومة أو مكتشفة.

وفي العام ١٩٧٥ وعند اندلاع الحرب سمحت هذه الحرب بفرصة ذهبية لإجراء المزيد من التنقيب والحفريات للكشف عمّا تحويه أرض بيروت ولهذه الغاية

وقع اتفاق في نيسان ١٩٩٣ بين منظمة الأونيسكو ومجلس الإنماء والإعمار وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية والمديرية العامة للآثار يقضي بالتنقيب عن آثار بيروت في الوسط التجاري المدمر لإظهارها والمحافظة عليها وخصوصاً إظهار مدرسة الحقوق التي لقبت بيروت من خلالها بأم الشرائع.

استقدمت المديرية العامة للآثار بعثات أجنبية متخصصة بالحفريات الأثرية في المدن التي تتطلب طرقاً مختلفة عن التي تقوم في مناطق أخرى. وهذه البعثات اختبرت نوعية هذا العمل في مدن كبرى مثل باريس لندن، نابولي، وروما وغيرها.

وفي صيف عام ١٩٩٣ بدأت أعمال الحفريات. وكانت قبل البدء بأي عملية حفر على نطاق واسع توضع إسبارات لتحديد المحيط الحساس وتقييم الموجودات وعلى ضوء هذه النتائج تتخذ القرارات من قبل علماء الآثار لتوقيف الإسبارات أو تحويلها إلى حفريات.

وتعدت الحفريات الحالية في بيروت البحث عن الآثار وأصبح من أهدافها أيضاً إظهار تطور أسواق بيروت منذ نشأتها وحتى اليوم مع اهتمام موجه للحقبة الإسلامية، وتوضيح النظام المائي وطريقة تصريف المياه ودراسة وتطور شكل وعاء القهوة، مثلاً، وبالتالي تاريخ القهوة والعادات والأعراف التي رافقتها.

سور بيروت

يعتقد المؤرخون أن سور بيروت يعود لفترة تأسيسها، أي للعهد الكنعاني. وهم يعتقدون أن ارتفاعه كان يبلغ ٥ أمتار بسماكة ٤ أمتار وتعلوه أبراج. وعلى مر الزمن خضع هذا السور لعدة عمليات هدم وترميم، خصوصاً أيام الفتح الإسلامي والصليبي.

وفي أواخر القرن الثامن عشر جدد أحمد باشا الجزار، وكان وكيلاً على بيروت من قبل الأمير يوسف شهاب، بناء السور واستعمل بقايا الأعمدة الضخمة التي خلفتها العصور القديمة، وما تزال بعض آثار هذا السور ظاهرة حتى اليوم.

وكان هدف الجزار تحصين المدينة ومنع الناس من السكن خارج السور وبقي هذا المنع ساري المفعول حتى سنة ١٨٣٢، حين اقتحم إبراهيم باشا المصري المدينة وهدم السور وأباح بناء المساكن خارجها.

وخلال الحفريات التي أشرفت عليها سنة ١٩٩٤ مقابل ساحة الشهداء إلى جانب البحر، أعلنت الدكتورة ليلى بدر أنها وجدت مدينة فينيقية بكاملها وجزءاً من السور الفينيقي. غير أن الدكتور حارث البستاني يشكّ في أن يكون الحائط هو السور الفينيقي، مع أنه يؤكد على أهمية هذه الحفريات بقوله: «لأول مرة نجد آثاراً فينيقيّة في داخل مدينة».

وكان لمدينة بيروت ٦ أبواب تفتح في النهار وتقفل في الليل، واكتسبت هذه الأبواب أسماءها من أسماء الأماكن التي وجدت فيها، أو من أسماء الأشخاص المكلفين بحراستها. ففي الزمن الغابر كانت النظم الحربية السائدة تعتمد تسوير المدن لحمايتها من العدوان الخارجي خلال الحروب المسلحة، ومما يذكر في هذا المجال أن الجزار حظر الإقامة في بيروت على أهل الجبل وعلى أمرائهم الشهابيّين الذين هدم ما كان لهم في هذه المدينة من قصور.

أما لماذا كان عدد الأبواب سبعة؟ فربما يعود ذلك لما لهذا الرقم من معنى التكامل الذي له أبعاده الروحية والدينية، بالإضافة إلى ارتباط أذهانهم بإيجابياته المتصلة اتصالاً وثيقاً بالسماوات السبع الوارد ذكرها في المأثورات العقائدية.

أسماء الأبواب ومواقعها

١ ـ **باب السلسلة**: يعتقد أن هذا الباب من أقدم أبواب «بيروت القديمة»، إذ يرجع تاريخه إلى أيام نائب الشام الأمير بيدمر الخوارزمي المملوكي. وكان يقع بين سور بيروت وبرج البعلبكية، عليه سلسلة تمنع السفن الغربية من دخول مرفأ بيروت والخروج منه إلا بإذن من السلطات المملوكية.

٢ ـ **باب السراي**: اشتهر باسمه لوقوعه بالقرب من سراي الحكومة وفي مطلع القرن الحالي اشتهر باسم باب المصلى لوقوعه بالقرب من ساحة المصلى.

وبقي هذا الباب قائماً حتى سنة ١٩٢٧ عندما بوشر بتخطيط الشوارع في المدينة القديمة.

٣ ـ **باب الدباغة**: وسمي كذلك لأنه كان يؤدي مباشرة إلى سوق الدباغين، وكان يوجد بجانب هذا الباب مسجد صغير اشتهر عند الناس باسم جامع الدباغة، وهدم عند تخطيط الشوارع في المنطقة التي يقع فيها وبني مكانه مسجد جديد أطلق عليه اسم جامع الصديق، تيمناً باسم أول الخلفاء الراشدين.

وحوالي سنة ١٩٣٠، وفيما كانت بلدية بيروت تردم بقايا السور وتزيل أنقاض باب الدباغة المتصل به لتفتح الشوارع والأسواق في منطقة المرفأ، ظهرت تحت الردم آثار هيكل روماني وحطام تمثال لأحد الفرسان وقد تمّ نقلها إلى المتحف الوطني.

٤ ـ **باب الدركة**: يعتبر من أجمل أبواب بيروت القديمة وأكبرها وكان يقع في شارع اللنبي المعروف باسم شارع المعرض. وكان على مقربة منه حمام عمومي يرتاده الناس قبل شيوع الحمامات في البيوت السكنية، وعين ماء جارية مصدرها محلة رأس النبع، ولعلها العين الوحيدة التي كانت في بيروت القديمة.

كما يروى أنه في سنة ١٨٣٢ وصل إبراهيم باشا إلى ظاهر بيروت، وما لبث أن دخلها فاتحاً من تحت قنطرة باب الدركة التي كانت تحمل نقشاً باللغة اليونانية معناه «أيها الداخل افتكر الرحمة». وبينما كان إبراهيم باشا يجتاز الباب إذا بأفعى ضخمة تتلوى تحت حوافر حصانه، وكان لظهور هذه الأفعى في تلك اللحظة التاريخية إيحاء بالتشاؤم لدى المحيطين بالقائد الفارس. إلا أن إبراهيم باشا سرعان ما أهوى سيفه على الأفعى وقضى عليها.

٥ ـ **باب يعقوب**: اكتسب اسمه من شخص كان يسكن بالقرب منه، وهو يقع في جنوبي «بيروت القديمة» في المكان الذي يحاذي الطرف الشرقي من أول الطريق المؤدية إلى جامع زقاق البلاط والمعروفة عند الناس باسم طلعة الأميركان.

وتجدر الإشارة إلى أنه كان الباب الأخير الذي أزيل من أبواب بيروت

القديمة.

٦ ـ **باب إدريس**: ويقع في المنطقة التجارية التي لا تزال حتى اليوم، وكان موقعه بالضبط على امتداد حائط كنيسة الآباء الكبوشيين التي ما تزال موجودة في مكانها القديم.

أما تسميته فتعود إلى عائلة «آل إدريس» التي كانت تسكن قربه.

٧ ـ **باب أبو النصر**: في أواخر القرن التاسع عشر انتشر في بيروت وباء أصيبت به عيون الأطفال، وكان نوعاً من الرمد يدعى «تراخوما». وقدمت إلى بيروت بعثة من راهبات اللعازارية ضربت خيامها تجاه درج خان البيض، في المكان نفسه الذي شيدت فيه بناية اللعازارية، اليوم فنجحت البعثة وقضت على الوباء مما حمل السلطان عبد المجيد الأول على إصدار فرمان شاهاني بتقديم الأرض التي خيمت فيها الراهبات المذكورات لهن جزاء لهن على خدماتهن الطبية.

ولكي تكون البادرة السلطانية متوازية بين النصارى والمسلمين، فإن السلطان أصدر في الوقت نفسه فرماناً شاهانياً منح بموجبه المسلمين عن طريق نقيب الأشراف المرشد أبي الوفاء عمر أبي النصر اليافي قطعة أخرى في الجهة الغربية الجنوبية من «سهلات البرج» وتحولت قطعة أرض النصارى إلى دير اللعازارية فيما تحولت أرض المسلمين إلى سوق تجارية عرفت منذ ذلك الوقت باسم سوق أبي النصر.

من الأسوار والأبراج التي كانت تحمي المدينة بحزام من المراقبة: برج السلسلة وبرج الفنار الذي كان يقع إلى جانب مدخل المرفأ القديم: برج الحشاشين وهو برج صليبي كان لحماية مدخل المرفأ، ويقع إلى جانب برج الكشاف. وكان يشرف على المدينة، وقد اختفى سنة ١٨٧٤ لتحل محله ساحة البرج الجديدة؛ برج أبي حيدر ومعناه الهمهمة ويعود لهمهمة الرياح حول أسوار البرج، والبرج الجديد كان يقع في ساحة السرايا الجديدة للجهة الغربية.

معالم بيروت

أسواق بيروت

بيروت المدمرة التي تحاول الانبثاق من بين الركام كانت آهلة بالجاه والناس وكان لها أسواقها المتعددة والمتنوعة حتى أطلق عليها اسم «بيروت أم الفقير» لأن كل فئات المجتمع كانت تجد ضالتها في هذه المدينة. وقبل أن ترتفع ناطحات السحاب الموعودة في الزمن الثالث للمسيح، لا بد من لمحة سريعة عن أسواق بيروت القديمة والجديدة التي قضت عليها الحرب في لبنان ولم يبق منها شيء سوى أخبار الذكريات في أذهان المعمرين. وكان يوجد في بيروت ثلاثون سوقاً لمختلف أنواع حاجات الإنسان.

سوق أبو النصر، سوق الأرمن، سوق الافرنج، سوق إياس، سوق البازركان، سوق البياطرة، سوق التجار، سوق الجميل، سوق الجوهرية، سوق الحدادين، سوق الخراطين، سوق الخضرة، سوق الخمامير، سوق الخياطين، سوق الدلالين، سوق الرصيف، سوق سيور، سوق الصرامي، سوق الطويلة، سوق العطارين، سوق الفشخة، سوق القزاز، سوق القطايف، سوق القطن، سوق اللحامين، سوق المنجدين، سوق النجارين، سوق النرابيج.

حارات بيروت

قبل أن تصبح بيروت مدينة وعاصمة لبنان كانت عبارة عن حارات وزواريب، ولا بد من ذكرها لكل متتبع لتاريخ هذه المدينة.

حارة اليهود، (وادي أبو جميل)، زاروب الدهان: جنوب الجامع العمري

الكبير، زاروب سابا: شرق شارع فوش، زاروب المبروم، الدباغات: بالقرب من جامع أبي بكر الصديق، زاروب الجودة، زاروب الشيخ رسلان، بالقرب من شارع اللنبي، زاروب البدوي، محلة فخري بك، محلة الشامية، محلة السنطية، محلة النورية، محلة النحاسين، محلة الثكنات، زقاق طاقة القصر، زقاق حنش، محلة الحدراء، زقاق اليافاوي، زقاق سعادة، زقاق المومسات، محلة المرفأ، محلة القلعة محلّة الخارجة.

الآثار الرومانية

من أهم الآثار الرومانية الظاهرة: الحمامات التي تقوم تحت السراي الكبير، وقد اكتشفت بقاياها في العامين ١٩٦٨ و١٩٦٩، خلف شارع المصارف. وهي ترتكز على مجموعة أعمدة من الفخار موزعة على مساحة واسعة، وتمتاز بمقاومتها للنار وباختزانها للحرارة أطول وقت ممكن. فكان يتمّ تشغيل النار في الموقدة، وبواسطة فتحة تؤدي إلى داخل الأعمدة تتوزع الحرارة تحت أرض الحمامات لتصل إلى البلاط الذي يغطي أرض غرف الاستحمام. وكانت نتيجتها مماثلة لنتيجة التدفئة المركزية اليوم، مع فارق التطوّر. وكان هذا الحمام يضمّ بئراً وثلاث غرف للاستحمام، وغرفة للمياه الباردة وغرفة للمياه الدافئة وغرفة للمياه الساخنة. ولم يبق من هذا الحمام سوى الأساسات والفسحة الصحية التي تقع تحت بلاطه، وكان الهواء الساخن يمرّ من خلالها.

ميدان سباق الخيل: يعتقد أن جوانبه المتوازية وأدراجه نصف الدائرية لا تزال موجودة في وادي أبو جميل. ولكن كثافة السكان في المنطقة حاليّاً حالت دون التعرف عليه. هذا الملعب كان مقصداً لطلاب الحقوق الذين كانوا يتغيّبون مرات عديدة عن صفوفهم للمشاركة في المراهنات التي كانت تحصل على أرضه، مستعملين أعمال السحر.

الشوارع والأعمدة: اكتشفت على مراحل وفي أزمنة مختلفة. أهمها:

ـ مبنى ضخم ظهر تحت بناية بنكو دي روما، وهو مزدان بست قناطر مغلفة بالرخام الأبيض المستورد من إيطاليا. وظهر وسط المبنى المحاط بالقناطر نصب

أنفالوس المصنوع من الغرانيت الأحمر. وقد يكون هذا النصب بمثابة بيت للإله، وهو في الوقت نفسه مذبح تقدم عليه القرابين من مياه وخمر.

وعلى عمق ستة أمتار، وجدت أحجار مبنية على قاعدة من المرمر الأخضر، وأقبية عقد تحت الأرض تمتد إلى شارع المصارف. وتقول ريناتا طرزي، العاملة في حفريات بنكو دي روما إن أعمال التنقيب تشير إلى ضخامة المبنى الذي بقي صامداً تحت التراب.

ويشير الدكتور حارث البستاني إلى أن العالم جان لوفري كان أكّد أن هذا المكان هو الـ «فوروم» الغربي (الساحة العامة). وربما كان قسماً من السوق الروماني أو بناء لمؤسسة اقتصادية أو مالية.

ـ في ساحة النجمة، عثر على بقايا شارع روماني مع أعمدته وتيجانها.

البُنى الصليبيّة والمملوكيّة والعثمانيّة

* سور من القرون الوسطى

جزء من السور الذي كان يحيط ببيروت في عصري الصليبيين والمماليك، وقد تمّ اكتشافه في أثناء الحفريات الأثرية التي أجريت على طول شارع البطريرك الحويّك إلى الشمال من شارع ويغان.

* قلعة صليبية

جزء من القلعة التي كانت تشرف على المرفأ في أيام الصليبيين. وكان معظمها قد هدم عام ١٨٦٠ في أثناء العمل على توسيع المرفأ القديم. بيد أن الحفريات الأثرية التي أجريت عام ١٩٩٥ مكّنت من كشف بعض أجزائها التي تظهر بنية ضخمة أدخلت في بنائها أعمدة رومانية بمثابة مرابط.

* السراي الكبير

بني عام ١٨٥٣ ليكون ثكنة عسكرية للحامية التركية. ثم أصبح في أيام

الإنتداب الفرنسي مقراً للمفوض السامي، إلى أن أصبح مقراً لرئاسة الوزراء في عهد الاستقلال.

* المستشفى العسكري التركي

أقيم عام ١٨٦٠ في مقابل السراي الكبير، ثم تحول منذ عهد الاستقلال وحتى الستينات إلى قصر للعدل. ويشغله حالياً مجلس الإنماء والإعمار.

* برج الساعة

بني عام ١٨٩٧ على مقربة من السراي الكبير، ثم جرى ترميمه عام ١٩٩٤.

مساجد بيروت

لبيروت مع المساجد والجوامع تاريخ قديم يعود إلى أيام العثمانيين الذين بنوا عدداً كبيراً من الجوامع في مدينة بيروت القديمة التي كانت داخل سور يحيط بها من جميع جهاتها ما خلا الجهة الساحلية منها. وتذكر كتب التاريخ أن الرحالة المتصوف الشيخ عبد الغني النابلسي عندما زار بيروت سنة ١١٠١ هـ (١٦٩٠م) سجل أسماء أربعة مساجد رآها فيها في كتاب عنوانه «التحفة النابلسية في الرملة الطرابلسية». والمساجد هي الجامع الكبير، جامع الأمير منذر، جامع الأمير عساف، وجامع البحر.

الجامع العمري الكبير:

من أقدم الأبنية الأثرية، ويعتبر من أهم جوامع بيروت وأغناها بالزخرفة والنقوش. كان في الأصل كنيسة مار يوحنا المعمدان التي بناها الصليبيون سنة ١١١٠ على نمط الكنائس الرومانية، فوق كنيسة بيزنطية كانت قائمة بدورها فوق معبد روماني.

هذه الكنيسة تحوّلت إلى جامع للمرة الأولى عندما استولى صلاح الدين الأيوبي على مدينة بيروت سنة ١١٨٧، وأصبحت جامعاً نهائياً سنة ١٢٩١،

وألحقت به تغييرات على مراحل. وفي القرن الرابع عشر جدّد بناء الجامع ليصبح على الطراز الإسلامي، ثم بنيت المئذنة.

وفي أواخر القرن الثامن عشر، ألحقت بالجامع بعض الزيادات في البناء، فبني حوض ماء للوضوء، وجعلت فوقه قبة تعلوها كتابة تشير إلى تاريخ البناء.

وتقول التقاليد الشعبية أن كف يوحنا المعمدان مدفونة في هذا المقام الذي هو عبارة عن قفص حديدي على أعلاه كتبت بعض الآيات القرآنية وكتابة تشير إلى أن هذا القفص هو هدية من السلطان عبد الحميد الثاني.

كما تعددت أسماء هذا الجامع في أزمنة مختلفة؛ ففي العهد المملوكي كان اسمه «جامع فتوح الإسلام» أي انتصار الإسلام. وفي العهد العثماني أطلق عليه اسم «جامع النبي يحيى» وذلك لأحد احتمالين: الأول تكرار الاسم الذي يطلق عليه عندما كان كاتدرائية صليبية، والثاني توهم وجود جزء من رفات النبي يحيى فيه. ويعتبر الجامع العمري الكبير من الأبنية الأثرية بموجب مرسوم جمهوري صادر في ١٦ حزيران ١٩٣٦م. ففي سنتي ١٩٤٩ و١٩٥٢ قامت مديرية الأوقاف والمديرية العامة للآثار بإجراء بعض الترميمات فيه بإشراف المهندس فوزي عيتاني. وفي الجهة الجنوبية الغربية منه فتوجد غرفة معروفة باسم «حجرة الأثر الشريف» لأن فيها ثلاث شعرات منسوبة إلى النبي محمد ﷺ أهديت لمدينة بيروت أيام السلطان عبد المجيد الأول العثماني في أواسط القرن الماضي. وقد سرقت هذه الشعرات أثناء الأحداث التي عمت البلاد خلال الحرب الأهلية سنة ١٩٧٥ وما بعدها. وخلال الحرب اللبنانية تعرض الجامع للسرقة وأصيب بأضرار كبيرة وتحطمت أسماء الصحابة التي كانت في نقائشه الأثرية وتعطلت فيه الصلاة.

جامع شمس الدين

من المساجد أيضاً التي هدمتها مديرية الأوقاف الإسلامية عام ١٩٤٩ وبنت مكانه بناية تجارية ولم يبق من آثاره الدالة عليه سوى نقش مثبت فوق مدخل البناية وعليه الكتابة التالية: «مديرية الأوقاف الإسلامية بناية وقف جامع شمس الدين».

ولا يوجد أي معلومات عن هذا الجامع سوى ما وجد في كتاب الشيخ محيي الدين الخياط الذي كتب. . .أن الأمير محمد شمس الدين الخطاب المنسوب إليه هذا الجامع مدفون في الجهة الشرقية من باب الجامع وهو من جملة الذين قتلوا في الحروب الصليبية.

جامع الأمير منصور عساف

الأمير منصور عساف التركماني كان والياً على بيروت وكسروان في أوائل العهد العثماني (القرن السابع عشر) ويقال إنه كانت مكان الجامع كنيسة المخلص للرهبان الفرنسيسكان. فلما هدمها باع الرهبان حجارتها لبني الحمر الذين بنوا بهذه الحجارة زاويتهم المعروفة بجامع الحمرا في شارع الحمرا ببيروت. حدثت ترميمات في الجامع في السنوات ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧ ـ ١٩٥٠، وأثناء هذه الترميمات أزيلت الغرف التي كانت ملحقة به، وكذلك أزيل منه قبر يعتقد بأنه ضريح الأمير منصور عساف نفسه.

وفي العام ١٩٣٦ صدر مرسوم جمهوري باعتباره من الأبنية الأثرية، وقد تصدّع خلال الحرب، وأُعيد ترميمه في التسعينات.

جامع الأمير منذر

بناه الأمير منذر بن سليمان التنوخي وكان حاكم بيروت سنة ١٦٣٣ أيام فخر الدين المعني الثاني. ويطلق عليه أيضاً اسم جامع النوفرة لأنه كان يوجد فيه بركة تتوسطها نافورة يندفع منها الماء إلى البركة التي كانت تستعمل للوضوء وهو يحتوي على أضرحة الأمير منذر والأميرين الشهابيّين ملحم ومنصور.

كما توجد أيضاً مساجد عديدة في بيروت؛ ففي كتاب الشيخ طه الوالي «تاريخ المساجد والجوامع الشريفة في بيروت» ذكر أنه بنيت في بيروت أيام المماليك سبعة مساجد وهي التالية:

جامع الدباغة: بني في عهد المماليك حوالي سنة ١٣٤٣ م وقد هدمته بلدية

بيروت عند تخطيط الشوارع في محلة المرفأ وأعطت الأوقاف الإسلامية قطعة الأرض التي يقوم عليها اليوم جامع أبي بكر الصديق.

مسجد البدوي: وهو يحمل اسم السيد أحمد البدوي المتوفي (١٢٧٦م) مؤسس الطريقة البدوية نسبة إليه. ويرجع تاريخ بناء هذا المسجد إلى سنة ١٣٤٣ م وقد أزيل عنه تخطيط محلة المرفأ التي كان يقع فيها. ونقش عليه أن الذي بناه هو الأمير عز الدين بن أزدم بن عبد الله الخوارزمي الناصري والي بيروت آنذاك، كما يشير إلى ذلك النقش الذي كان فوق بابه.

جامع التوبة: وعرف أيضاً باسم «جامع البحر» و«جامع العمري» وكان يقع في رأس سوق الخضار القديم. والمرجّح أن هذا الجامع كان من قبل كنيسة ولما تحولت الكنيسة إلى جامع في أوائل أيام المماليك أطلق الناس عليها اسم جامع التوبة.

مسجد الأوزاعي ومقامه في حنتوس: بني في أوائل العهد العباسي في القرن الثامن للميلاد وتعرّض لتغيّرات عدة وأعمال ترميم، منها المئذنة التي استحدثت سنة ١٩٣٩، ويضم خلف جداره الجنوبي ضريح الإمام عبد الرحمن الأوزاعي الذي توفي سنة ٧٧٣م.

جامع المجيدية: كان في الماضي حصناً بحرياً قديماً يعود إلى العام ١١٧٣، أي للعهد الصليبي. وكان جزءاً من السور الحامي للمدينة، تحول هذا الحصن إلى جامع سنة ١٨٤٤ في عهد السلطان عبد المجيد الذي أمر بترميمه وإضافة بعض الأجزاء عليه ومن هنا أطلق عليه اسم المجيدية إكراماً له.

كما يعرف هذا الجامع باسم مسجد المتاريس لأنه بني على السور الذي كان يحيط ببيروت ويحميها. وبإمكاننا ملاحظة أجزاء من هذا السور تحت المسجد.

وكان هذا البناء يقع على أرصفة مرفأ مدينة بيروت إلا أن الأراضي المستحدثة عبر القرون أبعدته عن مركزه الاستراتيجي الأساسي الذي كان يطل على البحر.

زاوية المغاربة: وهي قديمة العهد وقد أزيلت وحولتها دائرة الأوقاف الإسلامية إلى دكاكين تجارية.

زاوية المجذوب: كان موقع هذه الزاوية من المكان نفسه الذي توجد فيه بناية دار الكتب الوطنية الملاصقة لمجلس النواب اللبناني من الجهة الغربية. وفي جدارها الجنوبي كانت توجد نقشية من الرخام الأبيض وفيها أنشأ هذا المسجد العبد الفقير الحاج أحمد بن الحاج مختار سنة ٧٤٥ هجرية. وقد هدمت عام ١٩٢٠ أيام الانتداب الفرنسي.

زاوية رأس بيروت: وتعرف باسم مسجد الحمرا، أو جامع الحمرا. ينسب بناؤها لبني الحمرا البقاعيين.

زاوية ابن عراق: الوحيدة الباقية من عهد المماليك بنى هذا المكان الإمام علي محمد ابن عراق الدمشقي الذي غادر بيروت إلى مكة سنة ١٥١٧ وتوفي فيها مكرّماً باعتباره رجل دين رفيع. وعندما عاد ابنه لبيروت سنة ١٥٤٥ وسكن هذا المكان جلب معه القهوة وقدّمها إلى ضيوفه فقلدَّه سكان بيروت. ومنذ ذلك الحين انتشرت القهوة في المقاهي. هذا المبنى بسيط وهو مؤلف من طابق أرضي من الحجر تعلوه قبة كبيرة ترتفع فوق قاعدة مثمنة تخترق أضلاعها نوافذ صغيرة لتساعد على إضاءتها وتهويتها عندما كانت عامرة بالمؤمنين والدارسين.

إلى جانب زاوية ابن عراق أجريت حفريات عديدة أهمها تم سنة ١٩٩٤ حيث كان فريق عمل كبير بينهم ١٤ بريطانياً متخصصين بعلم الآثار المدينية archeologie urbaine وجّهوا اهتمامهم لإظهار طريقة حياة الناس في الفترة الماضية، وإظهار تطور أسواق بيروت ومصانعها وشكل وعاء القهوة، وذلك تحت إشراف العلماء هيلغا زيدن وتيم وليامس ودومنيك بيريني وبمساعدة طلاب من الجامعتين الأميركية واللبنانية، وهدفت هذه الحفريات إلى إعادة إعمار هذه المنطقة بواسطة أجهزة الكومبيوتر والفيديو وإعطائها إلى الأنظمة التربوية ليطلع عليها الطلاب.

كنائس بيروت

كاتدرائية مار جاورجيوس للموارنة:

بدأ بناؤها سنة ١٨٧٠، إلا أنها لم تدشن إلا سنة ١٨٨٨ بسبب قلة الأموال التي عرقلت سير العمل صممت هذه الكاتدرائية على شكل بازيليك سانتا ماريا مارجوري في إيطاليا فهي ذات طراز كلاسيكي وخصوصاً بواجهتها التي استخدم في أعلاها المثلث الكلاسيكي والطراز الأيوني، يبلغ طولها نحو ٥٠ متراً وعرضها ٢٠ متراً وارتفاعها ١٤ متراً وتستوعب نحو ٨ آلاف مؤمن، وهي تقوم على أقبية عقد شكلت في الماضي سوقاً تجارياً مهماً، والطابق الأول مخصص للصلاة أما الطابق الثاني فهو مخصص للكهنة ويضم صالونات للإستقبال. وكانت تحتوي هذه الكنيسة على لوحات استقدمت بعضها من إيطاليا والبعض الآخر بريشة رسامين لبنانيين معظمها أُتلف وكان السقف مزينا أيضاً بالرسوم والألوان.

موقعها في بيروت أكسبها شهرة واسعة، ففي داخلها كانت تقام الاحتفالات الدينية الرسمية والشعبية في حضور المفوّض السامي، وبعد الاستقلال في حضور رئيس الجمهورية. وسنة ١٩٥٣ أعيد ترميم سطحها وجدرانها ومذابحها دون المس بهيكلية بنائها فألبست جدرانها الرخام واستبدل مذبحها بالمذبح الحالي. وسنة ١٩٧٥ في الحرب تحوّلت هذه الكاتدرائية إلى ثكنة عسكرية فتشوّهت معالمها وانتهكت حرمتها وسرقت محتوياتها وفقدت جمالها الخارجي والداخلي.

كاتدرائية القديس جاورجيوس للروم الأرثوذوكس:

أقيمت عام ١٧٦٧ على أنقاض عدد من البنى الدينية الأقدم عهداً، وكانت حتى عشية الحرب اللبنانية التي أتت على رسومها الجدرانية أقدم كنائس بيروت على الإطلاق.

كاتدرائية النبي إلياس للروم الكاثوليك:

بنيت في أواسط القرن التاسع عشر، وكانت تتميز بزخارفها الرخامية الدقيقة.

كنيسة القديس لويس للآباء الكبوشيين:

أقيمت عام ١٨٦٣ لخدمة أبناء الجاليات الأجنبية من أتباع الطقس اللاتيني.

الكنيسة الإنجيلية:

أقامها المبشرون الأنكلو ـ أميركيون لخدمة أبناء الطائفة الإنجيلية.

ساحة البرج

تعرف أيضاً بساحة الشهداء وساحة المدافع، اختصرت تاريخ المدينة كله وكانت الشريان الحقيقي له وملقى للناس من لبنان والعالم، أخذت اسم البرج من برج الكشاف الذي كان موجوداً في الزاوية الجنوبية الشرقية من الساحة وكان للمراقبة، رسمه عدة رحّالين في القرن التاسع عشر إنما هذا البرج رمّم مرات عدة من عهد الصليبيين حتى دُمر نهائياً سنة ١٨٧٤.

وكان الفرنسيون يطلقون على هذه الساحة «ساحة المدافع place des canons» بسبب المدافع التي وضعها الروس في القرن الثامن عشر لحماية بيروت من الهجمات البحرية ضد الجيش المصري، أما تسمية ساحة البرج بساحة الشهداء فتعود لسنة ١٩١٦ عندما شنق الأتراك في هذه الساحة لبنانيين وسوريين كانوا يطالبون باللامركزية وسنة ١٩٣٠ أُقيم فيها نصب للشهداء يمثل امرأتين مسلمة ومسيحية تشابكت أيديهما فوق جرة لحفظ رماد الموتى، وسنة ١٩٦٠ أُقيم هذا التمثال الذي نراه اليوم بعدما شوّه مجهول التمثال القديم سنة ١٩٤٨.

المتاحف

لبيروت متحفها الوطني الجامع لكل آثار لبنان، وقد افتتح عام ١٩٤٢، وخلال الحرب أقفل. والآن تجري إعادة ترميمه ليفتح أمام الجمهور من جديد. وقد قامت مديرية الآثار للحفاظ على الآثار الموجودة فيه بصب الباطون المسلح فوق المدافن وبذلك حافظت على موجوداته وحمتها من السرقة خلال الحرب.

متحف نقولا إبراهيم سرسق

وهو متحف خاضع لوصاية بلدية بيروت وتقام فيه معارض فنية تتناول الفنون التشكيلية على اختلافها، بالإضافة إلى مجموعته الخاصة الدائمة.

متحف الجامعة الأميركية في بيروت

وهو متحف يحتوي على مجموعة أثرية متنوعة، يفتح أبوابه للزائرين.

*** تفاصيل أخرى عن الحفريات التي أجريت في بيروت حديثا في الجزء الرابع.**

الفصل الثاني

بعلبك
(هليوبوليس)

كان لبيروت مستعمرة شقيقة في سورية المجوّفة هي هليوبوليس، أو مدينة الشمس، التي جعلت العالم يتعرّف إلى سحرها وغموضها وعظمتها، ويركض ليلقي نظرة، وينظر فلا يشبع من حجارتها وأعمدتها وأساطيرها المدفونة والتي عجز الجميع عن تفسير أسرارها.

وعلى الرغم من هذه الأساطير التي تحوم حول هذه المدينة، لم يعثر علماء الآثار على أيّة ملاحظة تاريخيّة تذكر أيّ وجود لمدينة الشمس قبل القرن الثالث ق. م.

الجزء الأول من إسم بعلبك «بعل» قد يشير إلى أحد الآلهة. أما الجزء الثاني «بك» فهو مشتق من السريانيّة، على الأرجح، ويعني «صاحب» أو «مالك»، أو «إله». وربما كان الاسم بجزأيه مركّباً من BEL - BEQA، ومعناها «رب البقاع».

أما تسمية هليوبوليس فتعود إلى العام ٣٢ ق. م. وفي هذه التسمية إشارة إلى أن هذه المدينة كانت مكرّسة سابقاً لعبادة الشمس، كالمدينة التي تحمل اسمها في مصر.

وتقول الأساطير أن بعلبك هي من أقدم المدن في العالم، وأن آدم عاش في ضواحيها، ثم انتقل إلى دمشق ودفن في منطقة الزبداني، وأن قايين، عندما قتل أخاه هابيل، التجأ إلى بعلبك وبنى فيها قلعة شيّدت على أنقاضها القلعة الحاليّة.

اختلف العلماء حول الزمن الذي بنيت خلاله القلعة؛ فمنهم من قال إنها قلعة فينيقيّة. ومنهم من أشار إلى أن بنائها تمّ في في عهد سليمان الحكيم. ولكن أوّل ذكر لها في التاريخ يعود إلى زمن استيلاء الرومان عليها سنة ٦٤ ق. م. وأسّس فيها يوليوس قيصر مستعمرة سمّاها على اسم ابنته جوليا، ونقش على بعض أعمدتها الأحرف التالية C - J - A - F - H، وهي تلخّص العبارة التالية: «كولونيا جوليا أوغوستا فليكس هليوبوليتانا».

وساعدت مشتقات من مسكوكات المدينة النقديّة، والتي يعود تاريخها إلى القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد، على تدوين الملاحظات التاريخيّة الرئيسيّة عن بعلبك. وهذه النقود تميّزت بنقشين مختلفين: الأول: يحمل صورة مهاجر وإلى جانبه ثوران، والثانية: يظهر فيها هيكل ذو أعمدة عدّة في صف واحد ودرج.

وأظهرت النقوش على أحد أعمدة البوابة العموميّة للمدينة أن الأمبراطورين سبتيموس وكركلاّ قاما بإنجاز الهياكل وبناء المداخل لشكر الإلٰه. ونقرأ من بين هذه النقوش العبارة التالية: «شكراً من كركلاّ للآلهة جوبيتر وفينوس وهركول».

وتعود معابد بعلبك البالغ عددها ثلاثة إلى «الثالوث الإلهي» المحلّي: بعل هدد، الذي يقابله جوبيتر عند الرومان، وأتارغاتيس، أو فينوس إلٰهة الجمال والحب، والإلٰه الشاب هرمس ميركور Hermes - Mercure.

غير أن هذه المعابد بقيت غير كاملة بسبب تولي الامبراطور قسطنطين السلطة؛ فقد أمر بتوقيف العمل بالمعابد وتشييد الكنائس مكانها.

وكذلك فعل الامبراطور تيودوسيوس الكبير عام ٣٧٩ الذي لم يكتف بإقفال المعابد، بل هدمها وحول معظمها إلى كنائس. وفي القرن السابع فتحها الإسلاميون وبنوا في داخلها قلعة حربية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب عام ٦٣٤. وفي هذا التاريخ تحول اسمها من هليوبوليس إلى بعلبك.

بدأ التنقيب عن آثار بعلبك سنة ١٨٩٨ عندما زارها امبراطور ألمانيا غليوم الثاني، وكان قسم كبير منها مغطى بالتراب. فطلب من حكومته إرسال بعثة أثرية للقيام بأعمال التنقيب وإزالة التراب. فاستجابت الحكومة لطلبه وانصرفت البعثة إلى أداء مهمتها، بعدما حصلت على الإذن من الحكومة العثمانيّة، لقاء ١٢٣ ألف ليرة إنكليزيّة. وكشفت بنتيجة أعمالها التي استمرت من سنة ١٩٠٠ إلى آذار ١٩٠٤ عن ثلاثة معابد: معبد جوبيتر، ومعبد باخوس، إلٰه الخمر، ومعبد فينوس، إلٰهة الحب. وفي المكان أيضاً آثار قلعة عربيّة.

كما عثر على نقوش وتماثيل ونقود وحلى تعود إلى عهد نيرون. وأهم هذه

التماثيل تمثال من الذهب يمثّل إلٰهاً شاباً حليق اللحية، يرتدي ثوب سائق عربة، ويمسك بيده اليمنى سوطاً، وفي اليسرى رموز الصاعقة وسنابل القمح. وكان هذا التمثال يُحمل في بعض الاحتفالات السنويّة على أكتاف أعيان هليوبوليس، الذين كانوا يحلقون شعور رؤوسهم وينذرون التقشّف والطهارة. وكان ذلك يتمّ استعداداً للبدء بالاحتفالات.

ومن التماثيل التي وجدت أيضاً تمثالان آخران لجوبيتر وهليوبوليس يمثّلان إلٰهاً بين ثورين. ومعظم النقوش التي عُثر عليها كانت تبدأ باصطلاح .J. O. M. H، ومعناه «Jupiter Optimus Maximus Heliopolitenus». وهذه العبارة تعني بالعربيّة: «جوبّيتر الأعلى والأكبر في هليوبوليس».

وبين العامين ١٩٢٧ ١٩٢٨ قامت مصلحة الآثار في المفوضيّة الفرنسيّة في بيروت بحفريات جديدة كشفت عن آثار كانت مجهولة في ذلك التاريخ. وسنة ١٩٣٣ بدأ الترميم في القلعة على مراحل ليتوقف سنة ١٩٧٣ بسبب الظروف الأمنيّة.

للدخول إلى أعظم ما تركه لنا التاريخ من شواهد: معبد جوبيتر، ومعبد باخوس، علينا اجتياز البوابة العموميّة، فالبهو المسدس، ثم البهو الكبير.

البوابة العمومية

رواق مثلث بجبهة مثلثة الشكل، يبلغ طوله ٥٠ متراً، وعرضه ١١ متراً، وعلى جانبي البوابة كان برجان، والبرج الشمالي منهما ما زال باقياً حتى الآن. وبين هذين البرجين كان يمتدّ صف مؤلف من اثني عشر عموداً من الغرانيت تتقدم الدرج البالغ طوله ٥٠ متراً، وقد كان جدار الرواق مزخرفاً بسخاء وفيه ثلاثة أبواب، وكان الباب الوسط هو الباب الأكبر يبلغ ارتفاعه ١٠ أمتار تقريباً، وعرضه ٦,٢٥ أمتار، أما البابان الآخران فارتفاع الواحد منهما ٤,٥٠ متراً وعرضه ٣,٥٠ متراً وسماكة الجدار ٦ أمتار، وإلى جانب هذه الأبواب أدراج لولبية تؤدي إلى سقف الرواق والبهو المسدّس الذي يليه سلالم تؤدي إلى القسم الأعلى من البوابة.

البهو المسدس

في الساحة كان كهان جوبيتر هليوبوليس يجتمعون، وتبلغ مساحتها ٥٠ متراً مربعاً تقريباً، وفي كل زاوية من زواياها حجرة، وبين الحجرات الست معابد مثلثة الشكل كانت واجهاتها المفتوحة يتقدمها صف من أربعة أعمدة من الغرانيت، وأكثر هذه الأحجار والمعابد مهدم الآن، وقد أقام العرب في جدران هذه المعابد شرفات ذات عقود بيضويّة الشكل، ولما أزيل التراب عن الساحة تماماً، لوحظ أنه كان على مسافة ثمانية أمتار من هذه المعابد، سور مقدس ذو شكل سداسي وثلاثة ممرات وأعمدة من الغرانيت، وبين هذا السور وجدار المعابد الداخلي كان هناك سقف هرمي الشكل، ومن الأبواب الثلاثة التي تطلّ على البهو الكبير لم يبق غير الباب الواقع إلى اليمين وفوقه إحدى غرف الفناء المعدّة للمحادثة.

البهو الكبير

ويسمى أيضاً ساحة المذبح، ويبلغ طوله ١٣٤ متراً، وعرضه ١١٢ متراً وكان محاطاً باثنتي عشرة غرفة للمحادثة، منها أربع ذات شكل شبه دائري، والباقية مستطيلة الشكل. وكان في كل غرفة منها صف مزدوج من النوافذ ويتقدم كل واحدة منها صف أعمدة من الغرانيت، كذلك الحواجز الموصلة بين غرف المحادثة، قد حفرت فيها النوافذ. وعلى بعد ثمانية أمتار أمام هذه الواجهة اكتشف صف أعمدة مؤلف من ٢٤ عموداً من المونوليت ذات تيجان من الطراز الكورنثي، وكل عمود يبلغ ارتفاعه ٨ أمتار وإطار دائرته ٣,٨ أمتار ومساحة المصطبة التي تقوم عليها قاعدته ١,٨٠ متراً، وقد نقشت على التيجان أنواع عديدة من الزهور، وأشياء مختلفة أخرى، ولم يبق من صف الأعمدة هذا غير قواعد وساق عمود سليمة واحدة، وكانت الأبواب مغطاة بسقف يحميها من المطر والشمس، واكتشف في وسط هذه الساحة مذبح للقرابين يبلغ طوله ١٠,٥ أمتار وعرضه ٩,٥ أمتار، يحيط به حوضان طول الواحد منهما ٢١ متراً. والحوض الشمالي سليم وفيه رسوم منحوتة لميدوزا وشعرها المسترسل كالحيات، وتريون، وكوربيدون وهو يمتطي

تنيناً، وحوريات وحاملي الأكاليل والزهور. . . أما الحوض الجنوبي فقد تهدم قسم منه، والجانب الغربي من هذه الساحة كان مكشوفاً بأكمله مما يسمح برؤية مشهد عام لمعبد جوبيتر الكبير الذي يصعد إليه على درج ضخم.

هذا البهو الكبير تعرض قسم منه للردم في عهد الامبراطور تيودوسيوس الذي أشاد في القسم الواقع بين الحوضين كنيسة كانت، خلافاً للعادات الشرقية، ذات مدخل يتجه نحو الشرق ومحراب متجه نحو الغرب، لأن مدخل المعابد الرئيسي كان يجعل نحو الشرق، وقد هدموا السطحين الثاني والثالث من سطوح درج معبد جوبيتر كي يبنوا مذبح الكنيسة. ويبلغ طول الكنيسة ٦٣ متراً وعرضها ٣٦ متراً، وهي تنقسم من داخلها إلى ثلاثة أقسام، كل قسم يتعلق بأحد مذابح المحراب الثلاثة، وقد وجدت على جدران الكنيسة كتابات منقوشة باللغة اللاتينية ورسوم محفورة وقطع من سيقان الأعمدة نقلت كلها من المعبد الكبير، وعلى مقربة من الكنيسة بنيت خزانة للأمتعة المقدسة، وأمام أبواب الكنيسة الثلاثة، كانت ساحة رحبة في مقدمتها درج عريض. ويبدو أنه بعد بناء الكنيسة بوقت طويل، لاحظ البيزنطيون أن وضع المذابح مخالف للتقاليد السائدة فحولوها إلى الشرق نحو الساحة وفتحوا نحو الغرب، مكان المذبح القديم باباً جديداً ولما استولى المسلمون على بعلبك تحولت الكنيسة التي غطوا أرضها بالموازييك الملوّن إلى دار للسكن وإلى حمام.

هيكل جوبيتر

إحدى عجائب العهود القديمة، بني على مرتفع اصطناعي ليشرف على المدينة، يغطي مساحة تبلغ ٨٧,٥٠ متراً طولاً و٤٧,٥ متراً عرضاً. وكان يحيط بها ٥٤ عموداً: ٣٤ منها في الجانب الشمالي والجانب الجنوبي و٢٠ في الواجهة. ويتألف ساق كل عمود من ثلاثة حجارة كبيرة مدورة، ويبلغ طول العمود الواحد مع قاعدته وتاجه ٢٠ متراً، وقطر دائرته ٢,٢٣ متراً. وأعمدة الرواق الداخلي الستة التي ما تزال باقية حتى الآن تحمل سطحاً يزيد ارتفاعه على خمسة أمتار حافته مزخرفة لرؤوس الثيران والأسود وأكاليل من الزهور. . . ويتخللها على خط مستقيم

فوق كل عمود رؤوس أسود فاغرة الأشداق تستخدم كميازيب.

ويحيط بالمعبد من ثلاث جهات جدار جسيم جانباه الجنوبي والشمالي يتألف كل منهما من تسعة أحجار ضخمة، يبلغ طول الواحد منها بصورة متوسطة ٩,٥٠ أمتار، وارتفاعها ٤,١٥ أمتار وسماكتها ٣,١٥ أمتار. أما الجهة الغربية فهي تتألف من ستة حجارة ضخمة تشاهد على مستوى واحد وتحمل ثلاثة أحجار ضخمة أخرى يبلغ طول كلّ منها ٢٠ متراً وارتفاعه ٤ أمتار وسماكته ٣,١٥ أمتار.

وفي عهد الملك الأمجد بهرام شاه بنى العرب في الزاوية الشمالية الغربية برجا يرى فيه الجدار الخارجي للمعبد. وإلى شمال باب البرج باب يطل على سلم، وهذه السلم تؤدي إلى باب يقع في أسفل البرج ويفضي إلى خارج القلعة.

هيكل باخوس

وعلى بعد ٥٠ متراً من معبد جوبيتر ننتقل إلى أجمل المعابد الباقية لنا من العهد الروماني وأكثرها غنى بالزخارف في المنطقة: هيكل باخوس الذي كان مخصصاً لعبادة باخوس إله الخمر عند الرومان، وسمي كذلك بسبب العثور في داخله على تمثال للإله باخوس محاط بأوراق العنب. هذا المعبد وضعه أفضل من معبد جوبيتر، تدخل إليه من ساحة واسعة ثم تصعد إليه بواسطة درج عرضه ٣٤ متراً. وهو مبني على سطح ارتفاعه ٤,٧٠ أمتار وطوله ٦٦ متراً وعرضه ٣٤ متراً. وكان قسم منه مخصصاً للشعب والقسم الثاني المكان المقدس، ويتقدمه درج بعرض المعبد يؤدي إلى حوضين مربعين نقشت عليهما رسوم ثلاث راقصات. وكان لهذا المعبد سطح من خشب الأرز المغطى بورق من الرصاص تلاشى مع الزمن بسبب تعرض القلعة للزلازل والعوامل الطبيعية والسرقة.

ويعد باب الهيكل من أجمل الآثار التي تركها لنا القدماء. يبلغ ارتفاعه ١٣ متراً وعرضه ٦,٥ أمتار وفيه زخارف محفورة بدقة تمثل لآليء وأوراق كرمة وسنابل قمح ترمز إلى الموت والحياة. وهذه الزخارف نراها على العتبة العالية المؤلفة من ٣ أحجار كبيرة، وعلى حافتها نقوش أغصان ورؤوس أسود وطيور (معظمها مشوه)

فضلاً عن نقش يمثل نسراً يقبض بمخلبيه على شارة الأطباء ويحمل بمنقاره إكليلين من الزهور والفواكه. وإلى جانب الباب هناك مصطبتان بشكل S ما زالت جهة اليمين منه سليمة، وبابان صغيران يؤديان إلى سطح الهيكل وعتبات هذه الأبواب مزخرفة بدقة وتمثل إحدى الزخارف حيواناً فوق أغصان الكرمة غارقاً في كأس.

وكان مدخل هذا المعبد مزيناً بـ ٦ أعمدة تتقدمها ٦ أخرى لم يبق منها إلا نصف العدد. وكانت حجرة المعبد تنتهي ببوابة مؤلفة من ٥٠ عموداً كورنثياً لم يبق منها إلا ٢٥، وأكثر هذه الأعمدة مؤلف من ثلاثة حجارة وقاعدة وتاج ويبلغ ارتفاع كل عمود مع قاعدته وتاجه ١٨,٢٠ متراً وقطر دائرته ٥,٧٣ أمتار في القسم الأسفل، و٤,٧٠ أمتار في القسم الأعلى. أما عتبة الأعمدة فهي مزخرفة بنقوش ويتألف سطحها من مسدسات الأضلاع في كل مسدس نقش رسم إله يوناني أو روماني.

ومن الأعمدة الخمسة عشر التي كانت قائمة في الناحية الشمالية لم يبق إلا تسعة. وعلى السقف من الجهة الشرقية رسوم منقوشة لآلهة عديدة: «مارس» إله الحرب، «ديانا» ربة الصيد، «فولكان» إله النار، «باخوس» إله الخمر. وقد ازدان رأسه بأوراق الكرمة، «سيريس» ربة الحصاد وتحمل بين يديها سنابل وخشخاشاً.

أما أعمدة القسم الغربي الستة فلم يبق منها إلا ثلاثة، في حين تهدم السقف. وعلى أحد الألواح التي سقطت من السقف نشاهد نقشاً يمثل «إيرينه» ربة السلم والأمن. ومن الناحية الجنوبية نرى عموداً وقد اتّكأ على الجدار بعد تعرضه لهزة أرضية، ما يدل على مهارة المهندسين الذين بنوا قلعة بعلبك خصوصاً إذا لاحظنا الطريقة التي نفذ بها هذا العمود بحيث نرى كيف استطاعوا ربط الشقين المؤلف منهما العمود بوصلة واحدة من البرونز المصبوب في داخل الرصاص، وعلى ألواح السقف التي سقطت على الأرض نشاهد رسوماً منقوشة للآلهة «جونون» أم الآلهة، و«فينوس» ربة الحب وهي تضم إلى صدرها «كوبيرون» المجنح.

وعند زاوية الهيكل الجنوبية الشرقية برج من عصر المماليك، وقد بني في

القرن الخامس عشر ليكن مقرّاً لنواب السلطنة في بعلبك. وما يزال الهيكل والبرج الملاصق له يعرفان حتى اليوم بـ «دار السعادة».

هيكل فينوس

إلى الجنوب الشرقي من القلعة، يقوم هيكل صغير مستدير لا مثيل لتصميمه في جميع أنحاء العالم الروماني على الإطلاق. تحيط بالهيكل الذي بني خلال القرن الثالث ق. م. أعمدة كورنثية مؤلفة من قطعة حجر واحدة ارتفاعها ثمانية أمتار وقطرها ثلاثة أمتار، وتتجاوب مع هذه الأعمدة الركائز الموجودة في جدار الغرفة التي تحتوي على فتحات كانت مزدانة في ما مضى بالتماثيل. وفي سقف إحدى الفتحات، يُشاهد رسم لطائرٍ منقوشٍ هناك. وفي سقف فتحة أخرى نشاهد فينوس خارجة من صدفة وحولها إلهان صغيران. ويتقدم الهيكل سلّم ذات ثلاثة صحون تؤدي إلى دهليز ذي أربعة أعمدة، وكان باب الهيكل يبلغ من الارتفاع ٦ أمتار ومن العرض ثلاثة أمتار ونصف المتر، وقد حوّل المسيحيّون هذا الهيكل إلى كنيسة صغيرة سميت باسم القديسة بربارة. ونجد على حواجز الهيكل صلباناً وفي داخله من الناحية الشرقية يشاهد حتى اليوم صليب يوناني قرمزي داخل دائرة، وفوق هذا الصليب طغراء قسطنطين.

الأقبية

هذه المعابد تقوم على أقبية، ويقسم أحد القبوين اللذين يقعان تحت البهو الكبير إلى غرف عديدة تؤدي أبوابها إلى الخارج. وعلى هذه الغرف تقوم المعابد بينما الأقبية الأخرى استخدمت لحمل أعمدة البوابة العمومية التي تتقدم المعابد، وتخرج اليوم من القلعة بطريق القبو الجنوبي وطوله ١٢٠ متراً وعرضه ٥,٢٤ أمتار وارتفاعه ٦ أمتار، وعلى مسافة ٢٠ متراً من المدخل رواق يبلغ طوله ٩٣ متراً يؤدي إلى قبو آخر يقابل الأول، وإلى جانب هذه الأروقة كانت أروقة أخرى مقسمة إلى غرف يتمّ الانتقال منها إلى إحدى هذه الغرف الموجودة في الرواق الجنوبي بواسطة سلم حديثة.

القلعة العربية

بنى المسيحيون كنائسهم من ركام معبد «جوبيتر» وقد اقتفى الفاتحون العرب أثرهم فاستخدموا الأبنية التي تحدثنا عنها لغرض لم يكن منتظراً، إذ حوّلوها إلى قلعة عظيمة. ويدخل المرء إلى هذه القلعة من باب الزاوية الجنوبية الغربية وبسلسلة من الأروقة المتعرجة مما يسهل مهمة الدفاع عنها. ونصل بعد ذلك إلى باب ثانٍ، ثم إلى ثالث يطلّ على رواق جديد. ويفضي هذا الرواق إلى أمكنة السكن في البهو الكبير. وإلى الغرب من هذا الرواق نرى اليوم آثار جامع في فنائه حوض مربع، وأمام هذا الحوض نلقى المحراب، ووراء الجامع من الجهة الغربية، نرى برجاً ذا طوابق ثلاثة فيه نوافذ صغيرة للرماية تطل من ناحية على القلعة، ومن ناحية أخرى على جدار السور الذي يحيط بالهياكل كلّها. والقسم الأكبر من هذا الجدار مبني على الآثار الرومانية القديمة، وقد بقي من الطوابق الثلاثة التي تؤلّف الجدار طابقٌ واحدٌ فحسب. وإلى جانب باب مدخل البرج باب ثانٍ ومن ورائه سلم يؤدي إلى الطابق الثاني، وقد بنيت في هذا القسم من البرج في الزوايا الأربع غرف لحامية ذات نوافذ صغيرة للرماية.

ثم حفر العرب آباراً إحداها في البهو المسدس الأضلاع والأخرى على مقربة من الحوض الأيمن في البهو الكبير، والثالثة وهي الأهم حيث يبلغ عمقها ٤٥ متراً بين جدار الرواق والمعبد الصغير.

وبعد زيارة المعابد ينبغي للزائر أن يذهب إلى نبع رأس العين وإلى مختلف المقالع التي استخرجت منها حجارة الهياكل، وأبرزها المقلع الكبير الواقع إلى جنوب الأكروبول في مدخل المدينة وفي أسفل هضبة الشيخ عبد الله، حيث ما يزال حتى اليوم حجر كبير منحوت يسمّى حجر الحبلى أو حجر القبلة، طوله ٢١ متراً وعرضه ٦,٤١ أمتار وارتفاعه ٤,٢٠ أمتار وهو يزن ألفي طن تقريباً.

الفصل الثالث

جبيل

جبيل التي يدين لها العالم بالحرف عجقت الدنيا بأساطيرها وألغازها، واختلف العلماء حول اسمها، فمنهم من قال إن هذه الكلمة تأتي من Gebel، أي مصنع الخزف الذي ورد اسمها في أسفار يشوع وحَزَقيال. والبعض الآخر، وخصوصاً الإغريق، أطلقوا عليها اسم BYBLOS نسبة لكلمة يونانية معناها الكتاب.

هذه المدينة تعتبر من أهم المواقع التاريخية في الشرق الأوسط لسببين: الأول، لأنها الموقع الوحيد الذي أجرى فيه علماء الآثار حفريات منتظمة طيلة ٦٠ عاماً وصلوا في خلالها إلى الصخر، أي إلى الأساس. والثاني لأن الحفريات دلّت على أن جبيل كانت آهلة بالسكان من بداية تأسيسها وحتى اليوم دون انقطاع يذكر.

عمر هذه المدينة ٧ آلاف سنة كما دلت قطعة خشبية وجدت على علو ٤٠ سنتمتراً من الأساس، وتمّ فحصها في ألمانيا بواسطة طريقة علمية تسمى بالـ Carbone 14، إنما هذا لا يشمل الإنسان الحجري الذي كان موجوداً في منطقة جبيل منذ ٧ آلاف سنة حضارة، أي بداية إنتاج الإنسان الحجري الذي استقر في جبيل عند اكتشافه الزراعة.

تطوّرت جبيل وازدهرت منذ تأسيسها في الألف السادس قبل الميلاد دون أن يدخل إليها أي غريب، وذلك حتى الألف الرابع قبل الميلاد عندما ظهرت فيها بعض العناصر الغريبة أطلق عليهم بعض المؤرخين تسمية الساميين، ثم عاشت بعدما اندمجت مع هذه العناصر فترة استقلال ذاتي دام نحو ٩٠٠ عام حيث كانت في هذه الفترة مركزاً تجارياً ودينياً مهماً اشتهرت بهياكلها ومعابدها، خصوصاً معبد بعلة جبيل أو سيدة جبيل التي قدم لها فراعنة مصر الهبات، وكان ملكها في هذا الوقت يرتدي اللباس الفخم والجواهر الثمينة حتى يتباهى بأنه يوازي فرعون مصر.

وفي سنة ٢١٠٠ قبل الميلاد تعرّضت جبيل كغيرها من المدن الساحلية لغزو

من جانب الأموريين النازحين من شمال سوريا، فاحترق مدخلها وقسم من المدينة، ثم استقلت بعد ذلك أكثر من ٤٠٠ سنة حتى توترت العلاقة بينها وبين المصريين الذين بدأوا يطمعون بالسيطرة على السواحل اللبنانية الغنية بالأخشاب، فتعرّضت جبيل عندئذٍ لغزوات فرعونية مصرية، والذي دلّ على هذه الغزوات رسائل تل العمارنة والنصب الذي وجد على صخرة في جبيل يمثل الفرعون في هيئة ملك على رأسه الحية الرمزية.

ومن القرن الثاني عشر وحتى القرن التاسع قبل الميلاد عرفت مدن فينيقيا عصرها الذهبي. ولكن الحفريات لم تدل على أثر يثبت ازدهار جبيل في هذه الفترة والسبب يعود حسب العلماء إلى القرن الرابع عندما احتل الاسكندر الكبير المدينة وأمر بتدميرها وبنائها على شكل المدن اليونانية.

ثم تعرضت جبيل منذ القرن التاسع على التوالي لغزوات الأشوريّين والفرس واليونان والرومان وفي هذا العهد فقدت عزها وخسرت المقام المهم الذي كسبته بتعبدها للأصنام والأساطير، خصوصاً بعدما أمر قسطنطين بهدم كل الهياكل التي تخص الوثنية، ومثله فعل ثيودوسيوس الذي أمر بتشييد الكنائس فوق هذه المعابد.

وفي أواسط القرن السادس ميلادي، تعرّضت للزلازل الهائلة التي قلبت مدن الساحل ظهراً لبطن وانتقلت إلى أيدي الفتح العربي، ثم إلى الصليبيين فالمماليك والعثمانيين.

كان أرنست رينان أول من بدأ التنقيب عن الآثار في جبيل الغارقة بالحضارة. أما أعماله فكانت استكشافية أكثر مما هي حفريات منتظمة. وفي سنة١٩٢١ زارها العالم بيار مونتيه فحفر منطقة المدافن الملكية واستخرج منها نواويس عديدة أهمها ناووس أحيرام، أول ناووس نقشت عليه أحرف الأبجدية، وناووس الملك Abichemou وابنه الملك Ibchemou Abi. وفي سنة ١٩٢٥ بدأ العالم موريس دونان حفريات منتظمة استمرّت حتى سنة ١٩٨٣ اكتشف في نتيجتها منازل الإنسان الحجري، والمعابد والهياكل والأسوار، المسرح الروماني، القلعة الصليبية، والآلاف من التماثيل والقطع الفخارية والبرونزية والزجاجية وغيرها من الآثار

الظاهرة اليوم.

الحفريات التي قام بها دونان اعتبرها بعض العلماء «مجزرة» بحق جبيل وتاريخها، لأنهم لاحظوا أن دونان اعتبر التل الأثري سهلاً من دون أن يأخذ في عين الاعتبار تضاريس هذه المنطقة، بمعنى أنه كلما كان يقوم بحفر ٢٠ سنتمتراً كان يكتشف آثاراً تعود لعهود مختلفة، مثلاً أثر بيزنطي هنا وإلى جانبه أثر يعود للألف الثاني قبل الميلاد.

جبيل ككل مدينة ساحلية كان لها مدخلان أساسيان، مدخل بري ومدخل بحري، وهما محصنان بأسوار عالية وأبواب متينة، فالبوابة الشرقية كان يبلغ عرضها نحو ٢٠ متراً بحيث كانت مؤلفة من ٧ أبواب خشبية، وتفصل الباب عن الآخر مسافة ثلاثة أمتار. وكانت هذه الأبواب تفتح على مصارعيها في النهار وتوضع عليها خشبة كبيرة بالعرض، وعند أول إحساس بالخطر كان الجيش ينزع الخشبة فتقفل الأبواب السبعة في الوقت نفسه.

أما البيوت التي سكنها إنسان العصر الحجري النيوليتي والتي تعود إلى ٧ آلاف سنة فكانت تبنى من الأحجار وسقفها من الخشب أو الطين مثل بيوت ضيع لبنان قبل خمسين عاماً، وكانت مصطبة البيت مؤلفة من ٣ طبقات، طبقة تراب مرصوص فوقها طبقة من البحص، وفوق البحص هناك الكلس المدلك بحجر أملس. وفي هذه المنازل عثر على العديد من الأواني الفخارية وأدوات لصيد السمك والخياطة ومدافن بيضوية الشكل، بحيث كان السكان يضعون الميت على شكل جنين في جرة من الفخار بيضوية الشكل لإيمانهم بوجود حياة ثانية بعد الموت.

أما قصور الملوك الذين حكموا جبيل حتى القرن الرابع قبل الميلاد والذين يتعدى عددهم الـ ٣٠ ملكاً، فكانت مؤلفة من غرف عدة وهي تشبه بالتالي المنازل اللبنانية القديمة بحيث تدخل إلى دار كبير يتخلله أعمدة عديدة، ولكثرة الأعمدة التي كانت موجودة في هذه القصور، كان البعض يطلق على القصر «غابة الأعمدة».

وكان الأقدمون يعمدون إلى حفر الآبار لاستخراج الماء، ومن هذه الآبار المائلة إلى يومنا هذا «عين الملك» كما يدعوها عليها دونان، وهذه العين دلت الإلهة إيزيس على مكان وجود جثة زوجها الإله أوزيريس الذي قتله شقيقه ورماه في النيل بعدما وضعه في ناووس من الذهب، وتوضح الأسطورة أن إيزيس بكت كثيراً حبها، والنيل ما هو إلا فيضان دموعها، لكنها لم تيأس بل أخذت تبحث عنه في كل أنحاء البلاد حتى وصلت إلى جبيل متنكرة بزي بائعة مجوهرات وقارئة المستقبل حتى تستطيع الحصول على أخبار النساء، فدلتها إحداهن على مكانه في أحد قصور ملوك الجبيليين. وعندما وجدته أعادته إلى الحياة.

وكان الإيمان يحتل حيزاً كبيراً في حياة الفينيقيين الذين كانوا يختارون لآلهتهم الأماكن التي تحمل النفوس على الصلاة والتعبدّ والإيمان، كمشارف الجبال والغابات والرؤوس المطلة على البحر والأودية العميقة ذات الأنهار الزاخرة، فرأوا في جبيل الكثير من هذه الصفات، فاختارها الكنعانيون ككعبة دينهم، وقد استحسنوها أيضاً لوقوعها في وسط بلادهم الساحلية بين صور واللاذقية.

ولجبيل كسائر المدن الفينيقية ثلاثة آلهة مميزين: بعل أو أدونيس، بعلة أو عشتروت وإيل ثمرة الحب. ومن هنا كانت أسطورة أدونيس الذي أصيب بجروح بالغة نتيجة تعرَّضه لهجمة من خنزير بري فسال دمه بغزارة وامتزج بمياه نهر إبراهيم حيث كان يصطاد، فركضت عشتروت لإسعافه لكن الموت أدركه. وتضيف الأسطورة أن عشتروت كإيزيس لم تيأس وظلت تحاول إنقاذه حتى أحيته مع إطلالة فصل الربيع. ولما كانت مياه نهر إبراهيم عند ذوبان الثلوج في أوائل الربيع على قمم لبنان تمتزج بالصلصال الأحمر ادعوا أن إحمرارها هو بدم أدونيس، فكانوا يقيمون الرتب المخزنة ويمثلون دفنه ثم يغسلون تمثاله بمياه النهر ويكسونه بثياب فاخرة ويضجوّن فرحين لزعمهم أنه قام حياً.

ومن معابد جبيل المهمة نذكر معبد بعلة جبيل أو سيدة جبيل، ويعتبر أول معبد حقيقي بني في هذا المكان بحيث يعود إلى سنة ٢٨٠٠ قبل الميلاد، وكان مؤلفاً من طابقين ومقسوماً إلى ثلاثة أقسام كغيره من المعابد الفينيقية: فهو مسقوف

بجزء منه، ثم تليه باحة مكشوفة يتم فيها تقدمة الذبائح، وقدس الأقداس الذي لم يكن يدخله أحد إلا الكاهن، ويُزينه تمثال لإله المعبد أو أي شيء يرمز إليه.

وجد في هذا المعبد العديد من الهدايا والهبات معظمها من فراعنة مصر وتعبِّر عن احترامهم للسيدة. وفي العهد الفارسي تعرّض هذا المعبد لبعض التغيرات فأصبح تمثال الإلهة متوّجاً بهالة وقرني عجل ويحمل في يده اليسرى صولجاناً مزيناً بزهرة اللوطس، وإلى جانبه تمثال للملك يرتدي زياً فارسياً.

وإلى جانب هذا المعبد عثر على معبد آخر أطلق عليه العالم الأثري بيار مونتيه المعبد المصري لاحتوائه على تماثيل ذات طابع مصري ما زال بعضها موضوعاً خلف القلعة.

وعلى بعد ٢٠ متراً من معبد بعلة جبيل نرى المعبد الذي سمّاه دونان معبد الـ L لأنه على شكل L، بينما بعض العلماء أطلق عليه اسم معبد الإله «رشف» لأنه عندما تهدم قسم من هذا المعبد في خلال الغزو الأموري على جبيل بنى الأهالي مجدداً فوقه معبداً للإله رشف مستعملين الأجزاء الباقية من معبد الـL.

هذا المعبد يعود إلى العصر البرونزي القديم، أي لنحو العام ٢٦٠٠ قبل الميلاد، وهو مؤلف أيضاً من ٣ أقسام: الرواق الداخلي أو المدخل، الساحة المخصصة للشعب والتي تقدم فيها الهبات، وقدس الأقداس. وكانت حيطانه مبنية من صفين من الأحجار تتوسطهما أحجار صغيرة.

وفوق هذا المعبد، كما سبق وذكرنا، بني معبد «رشف» أو معبد «الأنصاب». ويعود هذا المعبد إلى سنة ١٩٠٠ قبل الميلاد، وفي الباحة المخصصة للشعب توجد جرة تتسع لـ ٦٧٥ليتراً من المياه والزيت المقدس وجرة أخرى لغسل الضحية قبل تقديمها كذبيحة.

ووجدت في هذا المعبد أنصاب بقياسات مختلفة أطلق عليها اسم «بيت إيل» أي بيت الإله، أهمها نصب أهداه فرعون مصر للإله رشف منقوش عليه بالكتابة الهيروغليفية وهو موجود اليوم في بيروت، و٨ مخازن للهبات في داخلها أكثر من

١٣٥ هدية ثمينة، من بينها تماثيل من البرونز مغلفة بورق من الذهب، وأدوات للزراعة، وفؤوس وخناجر من البرونز والذهب.

وفي ١٦ شباط من العام ١٩٢٢ زحلت الأرض في جبيل نتيجة الأمطار الغزيرة والعواصف وأدت إلى اكتشاف أهم أثر في البلاد: ٩ مدافن ملكيّة منحوتة في الصخر يتراوح عمقها بين ٨ و١٢ متراً ومؤلفة من بئر مربع عرضه أربعة أمتار وغرفة خاصة لوضع النواويس يفصلهما عن بعضهما حائط فوقه أحجار وتراب ورماد لحماية الناووس من السرقة. إلا أنه على الرغم من الحيطة التي اتخذت في تلك الأيام، انتهكت حرمة ستة مدافن من أصل تسعة واختفت محتوياتها.

وفي إحدى هذه المدافن عثر على ناووس أحيرام الذي يحمل أقدم وأكمل نص فينيقي أعطانا أحرف الأبجدية بالكامل ما عدا حرفين. يعود هذا الناووس إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد وهو موجود اليوم في المتحف الوطني. ومما ساعد العلماء على تأريخ هذا الناووس وجود قطع من تمثال من المرمر منقوش عليه اسم رعمسيس الثاني إلى جانبه، أما أحرف الأبجدية المحفورة عليه تعود الى القرن العاشر وذلك ما توصل اليه علماء الآثار مؤخرا.

ويكفي أن نعرف أنه قبل اكتشاف الأحرف التي نقشت على هذا الناووس كان المصري يستعمل ألفي رسمة للتعبير عن جملة واحدة.

وفضلاً عن مدفن أحيرام عثر على مدفن الملك Ibichemou وإلى جانبه مدفن ولده Ibchimou Abi متصلينَ ببعضهما البعض بواسطة نفق وما زال ناووس Ibchimou Abi ليومنا هذا موجوداً تحت الأرض لأنه المدفن الوحيد الذي يناسب موقعه للسياح وعشاق الآثار.

ويفسر العلماء وجود النفق بين المدفنين بأن الملك في تلك الأثناء كان يأمر بحفر مدفنه قبل أن يموت فقام الملك Ibchimou Abi لتعلّقه بوالده بحفر نفق بين مدفنه ومدفن والده ليستطيع هذا الأخير الاستفادة من الهبات التي يقدمها الشعب لولده من صلوات وبخور وهدايا وحتى يبقيا الأب وابنه على اتصال إلى الأبد.

ومن الهدايا المصرية الرائعة التي وجدت في المدافن وعاء من حجر ثمين يعرف بالأوبسيديان يعود لعهد الفرعون أمنحماتب الثالث، علوّه ١٢ سنتمتراً وقائمته من الذهب وهو عبارة عن قارورة للطيب لم يعثر على شبيه لها في مصر إلا اثنين فقط.

ومن العهد الروماني تتطلع إلى هذا المسرح الرائع الذي يعود إلى العام ٢١٨ ميلادي كما أكدت النقود التي اكتشفت إلى جانبه. هذا المسرح كان موجوداً خلف القلعة فوق مدخل المدينة وقد اكتشفه دونان في العام ١٩٥٤ ونقله لجهة البحر حتى يستطيع استئناف التنقيب في الأرض. وكانت مساحته أكبر بحيث كان يتّسع لأكثر من ١٠ آلاف نسمة وهو مبني على الطراز اليوناني حيث كان الناس ظهرهم لشمس المغيب ووجههم تجاه خشبة المسرح المضاءة بشمس بعد الظهر، فضلاً عن أنه كان مزيّناً بـ ١٠ أعمدة كورنثية ومبلّط بموازييك، يمثل الإله باخوس إله الخمرة عند الرومان. أما اليوم فنقلت الموازييك إلى المتحف وبلّط المسرح بعد نقله بالحجر البحري الأبيض والأسود.

ومن الآثار الرومانية نذكر أيضاً الساحة الرومانية. وهي عبارة عن ساحة عامة كانت مزينة بتماثيل عديدة تتوسطها بركة من المياه التي كانت تصل من نهر إبراهيم، وهي من الرخام وما زال القسم الأسفل منها موجوداً.

ووراء هذه البركة نلاحظ بقايا القلعة الفارسية التي اشتهرت بأسوارها، وهي تعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد، أما الحفريات في هذا الموقع فلم تكتمل.

وازدانت جبيل في العهد الروماني بالطرق المعبّدة التي تحيطها الأعمدة والتي ما زالت تشهد على تلك الأيام، في الوقت الذي استعمل بعض هذه الأعمدة كأحجار لتدعيم القلعة الصليبية.

وعندما دخل الصليبيون هذه المنطقة في أوائل القرن الثاني عشر استولوا على الموانىء البحرية وبنوا في كل مدينة ميناء، قلعة وبرجاً لحمايتهم وتأمين صلة وصل مع بلادهم أوروبا، فكانت هذه القلعة التي أمر ببنائها Hugues Henrico في العام ١١٠٨، واضطر الصليبيون إلى تدمير الطبقة البيزنطية للوصول إلى طبقة العهد

الروماني واستخراج الأحجار الضخمة وخصوصاً الأعمدة التي وصفوها بالعرض لتدعيم الجدران والتأكد من عدم تزعزعها.

هذه القلعة لها طريق ومدخل خاص بها، كان مدخلها الشمالي جسم متحرك، حواليه قناة للمياه على الطراز الأوروبي لحمايتها من العدو، وهي مستطيلة الشكل يبلغ طولها نحو ٥٠ متراً بعرض ٤٥ متراً وتتألف من برج مركزي عالٍ يؤدي إلى الوادي، وتحت كل برج يوجد خزان تتجمع فيه مياه الشتاء بواسطة قساطل من الفخار محفورة في زوايا سقف البرج لاستعمالها في مواسم الجفاف.

أما البرج المركزي فيعتبر من أكثر الأبراج حصانة ومتانة من النواحي كافة، وذلك بقوة أحجاره المأخوذة من الهياكل الرومانية والمباني الفارسية وصعوبة الدخول إليه ووجود خزانات للمياه وغرفة للمونة في داخله تكفي لأشهر عديدة، لهذا السبب كان هذا البرج مركزاً للقيادة العسكرية.

هذا البرج مؤلف من ثلاثة طوابق، طابق تحت الأرض وفي داخله خزانات المياه، الطابق الأرضي وهو على مستوى أرض القلعة ويؤدي إلى بهو كبير مضاء بنافذة عالية من الجهة الشرقية، في حين أن الطابق الأول مسقوف اليوم بقبة تعود إلى العام ١٨٤٠.

فمجموعة هذه الأبراج التي نراها اليوم وبعض الغرف والحيطان تعود إلى عهد المماليك الذين رمموها بعدما تعرَّضت القلعة إلى اجتياحات عدة ولم يبق من العهد الصليبي إلا الأساسات والبرج الشمالي الشرقي.

وإذا نظرنا إلى القلعة من الخارج، نستطيع أن نرى آثاراً لقذائف مدفعية تعود إلى العام ١٨٤٠ عندما ساعد الجيش الإنكليزي الأتراك ضد جنود مصر الذين تعاونوا مع الأمير بشير الثاني.

ومقابل القلعة على الميناء بنى الصليبيون برجين للمراقبة وحماية المدينة من العدو. وما زال البرج الغربي ببعض أجزائه ماثلاً ويطلق عليه أهالي جبيل اسم الطاحونة.

وعند دخول النصرانية إلى جبيل تهدمت كما سبق وقلنا معابد الوثنية وبنيت كنائس عديدة على مراحل وفي أمكنة عدة، من أهمها كنيسة مار يوحنا مرقس، بناها الصليبيون في أوائل القرن الثالث عشر على الطراز الرومنسكي وزينوا الحوض المخصص للعمادة بقبة عالية.

تقسم هذه الكنيسة إلى ثلاثة أقسام، حسب التصميم المتعارف عليه في تلك الحقبة أي التصميم البازيليكي.

القسم الأول قدس الأقداس وهو عبارة عن ثلاث حنايا، كل واحدة منها تحمل شكلاً نصف دائري.

ويقابل هذه الحنايا القسم الثاني الذي عرف بالصحن المخصص للمؤمنين وهو أيضاً مقسَّم إلى ثلاثة أقسام. أما القسم الأخير فهو عبارة عن صحن بالعرض، أُخذت هندسته عن البيزنطيين وكان هذا الصحن يستعمل للشعب الذي لم يتعمد بعد.

تحوَّلت هذه الكنيسة في أيام الأتراك إلى مساكن ومربض للخيل. ولكن سرعان ما أعادها الأمير يوسف الشهابي إلى كنيسة.

العلماء في جبيل وصلوا من خلال عمليات التنقيب إلى الأساس، إنما يبقى هناك أساس واحد مهم علينا جميعاً معرفته ويتمثل بتقييمنا لحضارتنا وتاريخنا حتى نستطيع بناء المستقبل والابتعاد بالتالي عن حضارة الحديد والإسمنت التي حوَّلتنا إلى شعب يعشق السطح ولا يدرك ما في الأعماق من لآلىء ودر ثمين.

الفصل الرابع

صيدا

بوابة الجنوب والضحكة الحلوة التي زرعها البحر على رملاته السمراء، يمتد تاريخها الحافل بجلائل الأحداث إلى ما قبل التاريخ الروماني، إلى زمن كانت فيه مركزاً للصناعة والتجارة على الساحل الفينيقي لأهميّة موقعها، وأماً لمدينتين: هبو في شمال إفريقيا وكيثيوم في قبرص، مثلما كانت صور أماً لمدينة قرطاجة. غير أن هذا المجد فقدته بعدما هجم عليها ملك الفرس أرتحششتا الثالث بـ ٢٠٠ ألف جندي لتستسلم بعد ذلك للاسكندر المقدوني ولكل حلفائه دون مقاومة. وفي العهد الروماني منحها الأكاباس حقوق المستعمرة. ويقال أن السيد المسيح جاء إلى ضواحيها وأخذ يبشر هناك، وكانت والدته مريم تنتظره على تلة مجاورة، وعلى هذه التلة، وتذكاراً لهذه الزيارة بنى المسيحيّون في ما بعد كنيسة «سيدة المنطرة» ونصباً عالياً للسيدة العذراء، على مدخل مغدوشة.

كانت صيدا مقسومة إلى قسمين كما دلت النقوش التي وجدت في معبد أشمون (أقدم أثر فيها)، القسم الأول: صيدا الكبرى أو البحرية وحرفة أهلها صيد السمك وصناعة السفن وتقوم المدينة الحالية مكانها. والقسم الثاني: صيدا الصغرى، وكانت تقع في الضاحية على سفوح المرتفعات التي تحيط بالمدينة وحرفة أهلها الصباغ والحياكة والزراعة.

وقبالة شاطئها كانت تقع جزيرة صخرية تبعد عن الشاطىء مئات الأمتار وتدعى الزيرة، وهي تحريف لكلمة الجزيرة. كانت في القرون السابقة مرفأً طبيعياً لرسو السفن، خصوصاً في أوقات الحرب والأزمات. أما اليوم فتقوم عليها منارة لهداية السفن.

ويؤكد المؤرخون أن الفينيقيّين بنوا صيدا على ساحل البحر الأبيض المتوسط حوالي سنة ٢٨٠٠ قبل الميلاد. وينسب البعض اسمها إلى بانيها صيدون بن صدقاء بن كنعان، بينما يؤكد البعض الآخر أن لاسمها علاقة بالجذور السامية «صيد» بمعنى صيد السمك كدلالة على ارتباط صيدا وأهلها بالسمك منذ القدم.

والذي يدل على قدم هذه المدينة وازدهارها في أواخر الألف الثاني وأوائل الألف الأول قبل الميلاد ورود اسمها في كتاب أسفار العهد القديم.

تحتضن هذه المدينة مجموعة كبيرة من الآثار لكثرة الشعوب التي تعاقبت عليها تاركة الكثير من معالم حضاراتها. وقد بدأت عملية التنقيب عن آثارها عام ١٨٥٥ كاشفة عن نواويس ملوكيّة ومعابد وحمامات وخانات. . .

النواويس

أجمل النواويس المنحوتة في العالم وجدت في صيدا في محلة القياعة ومغارة طلبون ـ عين الحلوة، وهي تحريف لمغارة أبولون. بدأت الحفريات في هذه المغاور سنة ١٨٥٥. حيث عثر على ناووس اشمنعزر الثاني ملك صيدا وقد نقشت عليه كتابة فينيقيّة، وهو اليوم موجود في متحف اللوفر. وعام ١٨٦٠ وصل المؤرخ الفرنسي أرنست رينان خلال جولته على مدن فينيقيّة إلى صيدا وقام بحفريات في مغاور طبلون (أبولون) واستخرج نواويس عدة. ثم تعاقب في التفتيش عن الآثار في هذه المنطقة كل من مندوب المتحف السلطاني حمدي بك والدكتور كونتو الذي وجد ناووساً فخماً محفوراً عليه بدقة رسم سفن فينيقيّة مشرعة السواري وشبيهة بالسفن الفينيقيّة التي وجدت في معابد الفراعنة في الكرنك. وهذا الناووس موجود اليوم في متحف بيروت ويعد من النواويس الثمينة.

وعام ١٨٨٧ استخرج مدير المتحف العثماني حمدي بك نواويس من محلة القياعة بعدما عثر عليها بالصدفة، منها أربعة نواويس يونانيّة من الرخام: «ناووس المرزبان» لأن الصورة التي نقشت على جوانبه تمثل مرزباناً، «ناووس الليڤي» نسبة إلى هندسة أهل ليڤيا، «ناووس الندابات» دعي كذلك لما نقش على جوانبه من النساء النائحات وعددهن ١٨ يمثلن الحزن في أشكاله المختلفة، «ناووس الاسكندر» الذي يعد من أبهى وأجمل النواويس اليونانيّة. وسمي كذلك لوجود نقش على جوانبه يمثل مآثر الاسكندر وحروبه مع الفرس، وهي جميعها في متحف اسطنبول.

كما استخرج حمدي بك من المحلة نفسها وفي السنة نفسها ناووسين ملكيين، الأول لتبنيت ملك صيدا ابن اشمنعزر الأول ونقشت عليه كتابة. والثاني يشبه الناووس الأول بالشكل ولكنه خالٍ من الزخرفة والكتابة، ويرجح أن يكون للملكة عمعشترت أخت تبنيت وزوجته. وقد وجد في ناووس الملك تبنيت تاج الملك وهو من الذهب الخالص وقلائد ذهبيّة وأساور ذات أحجار كريمة وأقراط أنيقة الصنع. وفي مقبرة «عين الحلوة» إلى الجنوب الشرقي من المدينة عثر على مجموعة نادرة من النواويس الرخاميّة المومياثيّة الشكل التي تعتبر من أهم موجودات المتحف الوطني في بيروت.

ونذكر أن أحد مؤسسي الكلية الإنجيليّة في صيدا الدكتور فورد وجد آثاراً في حدائق الكلية، ومن جملة ما عثر عليه ٢٥ ناووساً على الشكل المصري قدمتها زوجته في ما بعد إلى المتحف اللبناني. هذه المغاور قدمت إلى المتاحف العالميّة عدداً كبيراً من النواويس الرصاصيّة وغيرها من الأدوات الثمينة.

وقد قسم علماء الآثار هذه المدافن إلى ثلاثة أقسام:

ـ **القديمة**: التي تتكون من آثار عميقة مربعة محفورة جهاتها الأربعة بشكل غرف مربعة لوضع النواويس في داخلها، ومعظم نواويسها على الشكل المصري.

ـ **القسم الثاني**: يتألف من مغاور لها درجات وعلى جوانبها حفر أعدت لوضع النواويس. وقد وجد في داخلها نواويس من الفخار وأخرى مزخرفة ببعض النقوش.

ـ **القسم الثالث**: أحدث عهداً، وهي مكونة من مغاور مطلية بالكلس أو مدهونة بالألوان وعلى نواويسها نقوش يونانيّة ورومانيّة.

موانىء صيدا

فتحت صيدا ذراعيها للعالم وشرعت قلبها للشعوب فحمّلت على متن سفنها المشهورة التي شقت البحر أعمال أولادها السمر ثياب حلوة ومنسوجات ملونة بأحلى لون بالأرجوان لتنطلق رفوفاً رفوفاً من أبوابها المفتوحة على الكون من

موانئها المفلوشة على البحر.

موانئها الثلاثة القديمة التي لم يبق منها ليومنا إلا واحد هي: المرفأ الشمالي ويقع مكان المرفأ الحالي، والمرفأ الجنوبي المعروف بالمرفأ المصري ويقع جنوب المدينة القديمة، والمرفأ الخارجي الذي يقع في الجزيرة المقابلة للمدينة. ويعتبر المرفأ الشمالي الميناء الطبيعي لصيدا يحميه من الجنوب والغرب رصيف من الصخور الطبيعية بنيت عليها أسوار أو جدران ضخمة لصد الأمواج العالية. وقد عمد الأمير فخر الدين إلى تعطيله قبيل أسره على يد السلطات العثمانية سنة ١٦٣٣ لمنع أسطولها من الدخول إليه.

القلعة البحرية

تقع على جزيرة صغيرة بعيدة عن الشاطىء نحو ٨٠ متراً غير أن جسراً حجرياً يربطها بالبر ويتألف من تسع قناطر وينتهي قبل القلعة بأمتار عدة ليقوم جسر متحرك كان يدفع أو يحرق أثناء الحصار والحروب لتعزل القلعة ويصبح الدفاع عنها سهلاً.

بنى الصليبيون هذه القلعة بين سنة ١٢٢٧ و ١٢٢٨م. على شكل الحصون أو القلاع المحصنة التي كان يسكنها الإقطاعيون في أوروبا بالعصور الوسطى ليكونوا محميين من أي عدو خارجي. وتقوم هذه القلعة على ربوة عالية ذات موقع استراتيجي، وهي نموذج فريد من فن العمارة الصليبية، ويعتقد أنها أنشئت فوق معبد فينيقي قديم كان مخصصاً لعبادة وتكريم الإله ملكارت، إله الصوريين كما دلت كثرة الأعمدة القديمة والحجارة الأثرية التي استعملت لبناء هذه القلعة.

يقودنا الجسر الحالي إلى بوابة كبيرة كانت عبارة عن بابين، الأول خلف الثاني، وعلى جوانبها سور ضخم تتخلله فجوات صغيرة لرمي النبال اندثر جزء منه. ونلاحظ عند اجتيازنا البوابة الرئيسية وجود سور آخر وهو السور الداخلي للقلعة وله أبواب عدة، بعضها باقٍ والبعض الآخر تهدم. ووراء هذا السور هناك ساحة واسعة كانت سابقاً قاعدة كبيرة معدة لعقد الاجتماعات وهي مكشوفة اليوم

من جهة البحر لأن السور الشمالي مهدوم.

تتألف هذه القلعة من برج شرقي صليبي ومن برج غربي إسلامي بناه الأمير جلبان الظاهري سنة ١٣٥٠ في عهد السلطان الظاهر بيبرس بعد سيطرة المماليك على المنطقة.

البرج الشرقي كان الرئيسي، وهو عبارة عن برج كبير له أبواب عدة من الجهة الجنوبية ولا تزال آثاره ظاهرة، وباب واحد من جهة الشرق لا يزال قائماً ويبلغ طوله ٢٧ متراً وعرضه ٢١ متراً. يمتاز هذا البرج ببنائه الضخم، فجدرانه مبنية من أعمدة الغرانيت كجدران السور الخارجي، ويعتقد أن هذه الأعمدة كانت موجودة على الجزيرة وهي من بقايا المعبد الفينيقي القديم.

أما البرج الغربي فهو عبارة عن برج نصف دائري لا يزال قائماً، ما عدا بعض أقسامه العليا. ونرى في داخله غرفاً، وفي الوسط قاعة كبيرة ودرعاً لولبياً يؤدي إلى السطح.

ومن قلب القلعة نصعد إلى سطح البرج بواسطة درج حجري يؤدي إلى جامع صغير يعود إلى العهد المملوكي. وقد جدد الأمير فخر الدين المعني الثاني بناءه، لكن سرعان ما تهدم من جديد عندما ضربه الأسطول الإنكليزي ـ النمساوي عام ١٨٤٠.

هذان البرجان كانا متصلين ببعضهما البعض بسور أو جدار لا نرى منه اليوم إلا قسماً بسيطاً مرمّماً.

القلعة البرية

أثناء زيارته لصيدا خلال الاحتلال الصليبي، أمر الملك الفرنسي لويس التاسع الذي قاد الحملة الصليبية السابعة ببناء قلعة على تلة تشرف على المدينة وكان له ما أراد، إذ تم بناء القلعة بين العامين ١٢٨٣ و١٢٥٤ فوق ربوة تعلو عن البلدة، ٤٥ متراً في أعلى نقطة في صيدا. وهذه القمة المرتفعة الحصينة والمشرفة على المدينة ليست طبيعيّة إنما قمة اصطناعية تكوّنت على مر السنين من خرائب مدينة صيدون

القديمة وأخذت شكلها الحالي، وتعرف بتلّة صدف الموركس الذي يستخرج منه الصباغ الأرجواني.

إن شكل هذه القلعة الضخمة يشبه صورة قوس نصف دائري في وسط انحناءته برج ضخم دائري تصل سماكة جدرانه إلى متر ونصف المتر. سكنها الملك لويس التاسع مدة أثناء أقامته في الشرق، ومن هنا عرفت هذه القلعة باسم «قلعة القديس لويس».

وعندما استعاد الأمير علم الدين سنجر صيدا من الصليبيين سنة ١٢٩١ في عهد السلطان خليل بن قلاوون أمر بهدم تحصيناتها ليعود الأمير فخر الدين المعني الثاني (في عهد العثمانيين) ويرممها ويتخذها مكاناً للحراسة. وبقيت لسنوات طويلة مربضاً لمدفع رمضان يعلن موعدي الإفطار والإمساك لأهالي صيدا، فيما نقلت أحجار منها لترميم القلعة البحرية أو بعض بيوت المدينة.

الخانات

يعتقد الزائر لهذه المدينة للوهلة الأولى إنها مبنية بشكل فوضوي. ولكن نظرة واحدة على خريطة صيدا ترينا أن للمدينة طرازها القديم وهندسة خاصة، فصيدا الحالية بني قسم كبير منها في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني الذي أعاد لها بين سنتي ١٥٩٥ و١٦٣٤ عظمتها السابقة، وهي تضم الخانات والمساجد، والكنائس والحمامات.

قديماً وقبل اختراع السيارة كان الناس يسافرون من مكان إلى آخر على ظهور الخيل أو الجمال. وكان السفر في تلك الأيام يستغرق وقتاً أطول بكثير من «مشاوير» اليوم. وكان المسافر عرضة لشتى الأخطار، من مصاعب الطبيعة واعتداء قطاع الطرق. لذلك أقيمت على الطرق محطات يستريح فيها المسافرون. وكانت أماكن الاستراحات هذه تعرف بالخانات التي تعني فندقاً أو محل سكن ومستودعاً للبضائع وكانت الاستراحة فيها مجانية لعابري السبيل ولا يدفع النزيل سوى ثمن الطعام الذي يتناوله. . . وعلف حماره.

في القرن التاسع عشر ضمت صيدا ٧ خانات: خان الإفرنج، خان البنادق، خان الرز، خان الحمص، خان اليهود، خان الحرير وخان البشاشة.

ونظراً لأهميته التاريخية، سنحصر حديثنا بخان الإفرنج الذي يقع في داخل صيدا القديمة قرب الميناء، بناه الأمير فخر الدين المعني الثاني أواخر القرن السادس عشر كقصر لحريمه ثم منحه للتجار والقناصل الفرنسيين والآباء الفرنسيسكان بعدما تزايد عددهم في المدينة بإيجار ٩٧٢ قرشاً في السنة. ومن هنا أخذ اسمه وعرف بخان الإفرنج.

هذا الخان مربع الشكل تدخل إليه من بابين، الأول يطل على المرفأ والثاني على ساحة السراي تحيط به ممرات من الجهات الأربع وساحة مربعة مكشوفة كان يتوسطها حوض مياه وبعض الأشجار والأزهار، وتحيط بها ٢٨ قنطرة لا تزال باقية.

يتألف هذا الخان الذي تعلو غرفه قناطر العقد، من طابقين: السفلي وكانت بعض غرفه مكاتب ومستودعات للبضائع والبعض الآخر اسطبلات للخيل. ونرى اليوم في قسمه الشرقي اسطبلاً محافظاً على شكله الأساسي وفي وسطه بئر قديمة مياهها صالحة للشرب والأرجح أن هذه البئر ارتوازية.

أما الطابق الثاني فكان معداً للسكن ويتميز بشرفاته المطلة على الساحة ونوافذه المطلة على الميناء والقلعة البحرية. وكان جميع التجار الفرنسيين في صيدا ملزمين بالإقامة فيه حتى يكونوا تحت إشراف القنصل ويبقوا بمأمن في أوقات الاضطرابات.

وبعد موت الأمير فخر الدين احتفظ الفرنسيون بهذا الخان ليصبح في ما بعد مركزاً للمبشرين الفرنسيين من يسوعيين وعازاريين وكبوشيين وفرنسيسكان. وسنة ١٨٣٧ تصدّع قسم منه بسبب الزلزال الذي أصاب صيدا في ذلك الوقت، ثم رمّم ليتحول إلى مدرسة ابتدائية مجانية تابعة لراهبات مار يوسف. أما اليوم وبعدما شهد ورشة ترميم تحول إلى مركز ثقافي واجتماعي وسياحي للمدينة بعد اتفاق أبرم بين الدولة الفرنسية و«مؤسسة الحريري».

المساجد

صيدا غنية بمساجدها التي تعود إلى حقبات مختلفة. ولكن أقدمها وأكثرها أهمية هو الجامع العمري الكبير.

لم يعرف تاريخ بناء هذا الجامع، ولكن يعتقد أنه مبني فوق معبد كنعاني لعبادة إله الشمس. وعندما انتشرت المسيحية في صيدا تحول إلى كنيسة، ومع الفتح الإسلامي تحول إلى جامع بعدما أجريت عليه بعض التغييرات ليعود من جديد في عهد الصليبيين كنيسة تحولت بعض أقسامها إلى حصن وتوسعت مساحة بنائها. وعندما استعاد المسلمون المدينة من الصليبيين حولوها مرّة أخرى إلى مسجد.

هذا المسجد مبني بأحجار رملية ضخمة، تزيد سماكة جدرانه عن المتر الواحد الأمر الذي يجعله يمتاز بالبرودة في الصيف والدفء في الشتاء بطريقة التكييف الطبيعي. وتدل أحجام حجارته المختلفة على التغييرات والتوسعات التي لحقت به خلال عصور مختلفة. له مدخلان، الأول من جهة الشمال وهو المدخل الأساسي ويؤدي مباشرة إلى صحن الجامع الذي تحيط به قناطر من كل الجهات ويشبه إلى حد ما الجامع الأموي في دمشق، ولكن بصورة مصغرة. أما المدخل الشرقي فهو مقفل منذ سنوات ويمتاز بأنه يمتد على طول الحديقة التي كانت تحيط به من الشرق والجنوب وطولها ٥٠ متراً وعرضها أكثر من ستة أمتار.

يتألف المسجد من أربعة أقسام:

ـ الحرم الذي يستند على ركائز صلبة، يبلغ طوله ٣٠ متراً وعرضه ثمانية أمتار وعلوه ١٠ أمتار. تدخل إليه من ثلاثة أبواب خشبية وينتصب في وسطه منبر من الرخام.

ـ البهو، وتبلغ مساحته نحو ضعفي مساحة الحرم، تعلوه ثلاث قباب تبدو عليها مظاهر العمارة العثمانية فهي على شكل قباب دائرية محمولة على مثلثات كروية.

ـ مئذنة مستديرة لها شرفة دائرية مسقوفة بقبة شكلها مخروط.

ـ الصحن وتبلغ مساحته مساحة البهو تقريباً وكانت تتوسطه بركة مياه.

تعرض هذا المسجد لزلازل وعواصف بحرية وحروب، ولكن سرعان ما كان أهالي صيدا يسارعون لترميمه وإصلاحه.

- **جامع بطاح**

يقع داخل مدينة صيدا القديمة في سوق المصلبية. لم يعرف تاريخ بنائه؛ أما عن سبب تسميته بـ «بطاح» فيروي الصيداويون حكاية ضبع كان يزعج المدينة كل ليلة. وفي إحدى الليالي دخل هذا الضبع إلى الجامع الذي كان يعرف بجامع السوق وشرب من الزيت الموجود في سراجه فمات. وعندما أتى المصلون ورأوه على الأرض فسمّوا الجامع بالبطاح.

- **جامع قطيش**

يقع داخل صيدا شمال ساحة المصلبية، ينسب لبانيه علي بن محمد قطيش الذي شيده في القرن السابع عشر، ولا تزال بعض جدرانه تحتفظ بنقوش وزخارف باللونين الأزرق والأخضر، وقد تحول إلى حديقة كبيرة مغروسة بالأشجار.

- **جامع البحر**

يشرف على ميناء صيدا، بني القسم الأول منه سنة ١٣٧٣ والثاني سنة ١٩١١.

- **جامع كتخدا (كينميا)**

ينسب بناؤه لمصطفى كتخدا سنة ١٦٢٤ ويقع قرب «قهوة القزاز» داخل صيدا القديمة، وهو مقفل منذ سنة ١٩٤٨.

جامع البراني

عرف بهذا الاسم لأنه كان أول مسجد يشيد خارج أسوار صيدا في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني ويقع قرب الحسبة القديمة ويضم ضريحي الأميرين

المعنيين ملحم وسيف الدين وفيه بقايا زخارف معنية. وقد تهدم قسم منه خلال الاجتياح الإسرائيلي سنة ١٩٨٢.

• **جامع باب السراي**

عرف بهذا الاسم لموقعه شرق ساحة السراي ويعرف أيضاً بـ«جامع المحتسب» نسبة إلى محتسب صيدا الشيخ أبو اليمن.

• **جامع المجذوب**

بناه محمود المجذوب سنة ١٧٧٣ ويعرف أيضاً باسم مسجد البوابة لوقوعه مقابل بوابة الشاكرية.

مقامات صيدا

• **مقام النبي يحيى**

يقع على تلة شرق صيدا فوق الحارة، ويعتقد المسلمون أن هذا المقام هو ضريح النبي يحيى بن زكريا، فيما يعتقد المسيحيون أنه ضريح مار يوحنا. ولا يزال تاريخ بناء هذا المقام مجهولاً.

• **مقام مار الياس**

يقع على رأس تلة في الجهة الشرقية من صيدا ويعتقد المسلمون أن هذا المقام ضريح الخضر، فيما يؤكد المسيحيون أنه ضريح مار الياس وهو مهجور اليوم.

• **مقام الست نفيسة**

يقع في حي الدكرمان في وسط صيدا في الحي المسمى باسمها، ولم يعرف تاريخ بنائه. ولكنه موجود قبل سنة ١٧٩٤ على الأقل. دفنت فيه الست نفيسة التي كانت مربية لآل حمود الذين أكرموها بعد وفاتها بقبر تعلوه قبة ليصبح في ما بعد مزاراً.

● **مقام صيدون**

يعتقد أنه كان هيكلاً لإله فينيقي. وهو يقع في منطقة البرغوث.

● **مقام شمعون**

ينسب لشمعون أحد أنبياء اليهود، يقع في منطقة الوسطاني، بني فوقه مسجد يعرف بمسجد الصديق.

● **مقام أبو الروح**

يقع في منطقة البرغوث قرب شاطىء البحر وينسب للصحابي شبيب بن ذي الكلاع الملقب بأبي الروح.

الكنائس

لا تقل كنائس صيدا بأهميتها التاريخية والمعمارية عن مساجدها:

● **كنيسة الموارنة**

التي تحولت من مصبغة إلى كنيسة سنة ١٦٠٦ وهي من أقدم كنائس المدينة.

● **كنيسة الروم الكاثوليك**

جدد المطران أفتيموس الصيفي بناءها سنة ١٦٩٠.

● **كنيسة اليسوعيين**

أنشئت في عهد الأمير فخر الدين المعني وتقع في حرم دير اليسوعيين الذين سلموه للأخوة المريميين سنة ١٩١٠. ويعتقد أن هذا الدير كان القصر الملكي الفارسي الذي يعرف بالفردوس والذي كان يسكنه ملك الفرس لأشهر عدة في السنة ويجلس عن يمينه ملك صيدون قائد الأسطول الفينيقي وعن يساره ملك صور.

الحمامات

ومن أجواء صيدا الشعبية ومعالمها المميزة العابقة بعطر الأيام الحلوة، لا نستطيع إغفال ذكر الحمامات التي كانت مقصداً للعائلات الصيداوية وأكثر من مرة

في الأسبوع. وكانت تخصص في الصباح للرجال وبعد الظهر للنساء والأولاد. وفي النادر أن نرى صيداوياً لا تضمّ جعبته قصة حصلت معه في داخل الحمامات الشعبية.

تحولت هذه الحمامات اليوم إلى مراكز أثرية أو تجارية بعدما أغلقت أبوابها ما عدا حمام الورد وحمام الشيخ اللذين يفتحان في أيام الشتاء.

يقع حمام الورد إلى جانب المدخل الشمالي لجامع العمري الكبير، بناه آل حمود سنة ١٧٢٠ على الطراز المعني وفيه زخارف متنوعة ويمتاز بقاعته الواسعة. أما حمام الشيخ الذي يقع أيضاً داخل المدينة القديمة فيتجاوز عمره الـ ٣٠٠ سنة وهو واسع ومبلط بالبلاط الناري.

ومن حمامات صيدا التي تحولت إلى مراكز تجارية أو اندثرت نذكر: الحمام الجديد الذي يعود للقرن السابع عشر، حمام السوق الذي يقع قرب جامع بطاح وحمام المير المبني في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني وكان يقع غرب خان الإفرنج.

تلة المرّيق Murex

تقع هذه التلة إلى الجنوب من القلعة البرية، وهي عبارة عن مرتفع اصطناعي يصل طوله إلى نحو مئة متر وارتفاعه إلى نحو ٥٠ متراً. وقد تكون من جزء تراكم بقايا أصداف الموركس (المريق)، وهو نوع من المحار كان يستخرج منه الصباغ الأرجواني في العصر الفينيقي. ويبدو أن التلة تحولت في العصر الروماني إلى منطقة سكنية وتغطيها اليوم المساكن والمدافن.

معبد أشمون

لكل مدينة فينيقية إله خاص بها، هذا إذا لم يكن لها عدة آلهة، ومن آلهة صيدون الإله أشمون، إله الصحة والشفاء عند الأطفال.

ولإيمان الصيدونيين بقدرة هذا الإله، بُني له هيكل في أواخر القرن السادس قبل الميلاد في البستان المعروف ببستان الشيخ، قرب مجرى نهر الأولي شمال شرق صيدا، بالقرب من قرية كرخا.

اكتشفت آثار معبد أشمون لأول مرة سنة ١٩٠٠ على يد الأثري مكريدي بك ومهندسين من البعثة الألمانية التي كانت تعمل في هياكل بعلبك. وجرى استكمالها سنة ١٩٦٤، وكشفت الحفريات عن معبد كبير بني للإلهة عشتروت والإله أشمون ولكنه عُرف بمعبد أشمون.

يتألف من سور بشكل مستطيل من حجارة ضخمة محكمة الوضع، يبلغ طوله من الشرق إلى الغرب نحو ٦٠ متراً وعرضه من الشمال إلى الجنوب نحو ٤٤ متراً. وهذا السور كان يدعى الحرم، وفي الوسط كان المقدس أو مقام الآلهة، وحوله ساحة متسعة.

ودلّت النقوش التي وجدت أن المعبد بني على مراحل من الفتح الفارسي حتى الفتح الروماني. ومن الغريب أن هذه النقوش أو الكتابات لم تكن على وجه الحجارة الظاهرة بل على وجهها الخفي الواقع فوق الحجارة السفلى بحيث لم يمكن الاطلاع عليها إلا بنقض الحجارة والفصل بينها. وهذه النقوش الموزعة اليوم بين متاحف أوروبا والآستانة تذكر الملك بدعشترت ملك الصيداويين حفيد اشمنعزر، وبأن هذا الهيكل للإله أشمون، وتعدد أيضاً بعض أقسام صيدون القديمة.

هذا المعبد لم يبق منه شيء اليوم إلا إطلال معبد وباحة مسورة تبلغ مساحتها ١١٠ أمتار مربعة بداخلها كرسي خالية للإلهة عشتروت، وعلى جوانبها أسدان وتعود للقرن الثالث قبل الميلاد. وبعض الجدران العارية والحجارة الضخمة نقشت عليها كتابات فينيقية تعدّد ملوك صيدا وآثار أحواض كانت تحتوي على مياه مقدسة حين كان التقليد الكنعاني يقتضي بتغطيس الأطفال في هذه الأحواض قبل دخولهم إلى الهيكل لأول مرة.

كما يوجد في المعبد أيضاً تمثال لأربعة ثيران من الرخام يعود للعهد الفارسي، وحائط غرفة نقش عليه بعض الرسومات، منها رجل يلاحق ديكاً ليقدمه ذبيحة للإله أشمون.

ووجد في هذا المعبد ١١ تمثالاً رخامياً لأطفال كان أهلهم ينذرونهم للإلهة أشمون أو للإلهة عشتروت ليشفياهم من جميع الأمراض، وهذه التماثيل موجودة اليوم في متحف بيروت.

وإلى جانب هذا المعبد وجدت قطعة من الذهب محفور عليها رسم الإله أشمون والإلهة إيجي: أشمون يحمل بين يديه عصا تلتف حولها حية، وإيجي حاملة بيديها حية تشرب من كأس، وبين أشمون وإيجي طفل جالس يحدّق بأشمون.

يذكر أن هذا المعبد كان شعاره حية منقوشة على باب مدخله، ومن هذا الرمز اتخذ الأطباء الأفعى الملتفة حول الكأس كشعار لهم.

وتقول الأسطورة أن أشمون كان صياداً، أغرمت به الإلهة عشتروت، لكنه لم يبادلها هذا الحب فشوّه نفسه ومات، فأعادته عشتروت إلى الحياة على شكل إله.

الفصل الخامس

صور

أرض الأساطير القديمة الحاملة في جعبتها حكايات وحكايات، من تصدير الحرف إلى صناعة الصباغ الأرجواني والزجاج وأسماء أبطال من أليسار إلى قدموس وهنيبعل. هذه الأرض فتحت ذراعيها على العالم وصدرت حضارتها الخاصة بها وكأن ارتباطها باليابسة عام ٣٣٢ قبل الميلاد جاء ليوصل بقدر كبير ما اختزنته من أجيال قديمة إلى أجيال متقاربة.

عمر صور حسب المؤرخ هيرودوت اليوناني يعود إلى ٢٨٠٠ ق. م. ويقول أحد الكتّاب البريطانيين سنة ١٨٩٩: «إن لم تكن صور من أقدم المدن الفينيقيّة، فقد كانت في كل الأدوار التاريخيّة أهم مدن فينيقيا على الإطلاق. ويشيد الكتاب المقدس في القرن الأول قبل المسيح دائماً بمحاسن صور ويذكرها في بعض نصوصه بالقول: «صور أغنى الشعوب... اشبعت شعوباً كثيرة وبكثرة ثروتك وتجارتك أغنيت ملوك الأرض».

صور أو تير Tyre تعني في الكنعانيّة الصوان أو الحجر الحاد الذي يدلّ على طبيعة الجزيرة الصخريّة التي بنيت عليها المدينة، وكان تحوتمس الثالث أول من ذكرها في نقوش تعود لسنة ١٤٩٧ ق. م. وتظهر ادعاءات الصوريين بأن مدينتهم قديمة بل أقدم مدن فينيقيا، في كتابات النبي أشعيا في القرن السادس قبل الميلاد وفيها: «صور المفتخرة التي منذ الأيام القديمة قدمها».

وتعطينا لوحات تلّ العمارنة، وهي رسائل اكتشفت في القصر الملكي المصري، أخباراً عن حالة صور في القرن الرابع عشر قبل الميلاد وتثبت هذه اللوحات رسائل موجهة من ملك صور أبي ملكي في القرن الرابع عشر إلى فرعون مصر.

تقع صورة وسط السهل الممتدّ من رأس الناقورة جنوباً حتى مصب نهر القاسميّة ـ الليطاني شمالاً. وكانت في الأساس جزيرة صخريّة في قلب البحر تقع

مقابل مدينة برية تدعى بالبتروس، أي صور القديمة، وكانت تبعد نحو ٦٠٠ متر عن الشاطىء. ولم تكن هذه الجزيرة أكبر بكثير من القسم الغربي من شبه الجزيرة الحالية البالغة مساحتها نحو الـ ٥٨ هكتاراً. ويعتقد أن عدد سكانها كان يتجاوز الـ ٢٠ ألف نسمة في أيام السلم. وكانت المنازل تتألف من طبقات عدة وتبنى على ارتفاعات لم تكن معهودة في تلك الفترة وذلك حتى تستوعب هذا العدد من السكان.

كان يحيط بالجزيرة جدران من الحجارة الضخمة يبلغ ارتفاعها نحو ٥ أمتار، وترتفع فوقها أبراج للمراقبة فيما كانت صفوف السفن الحربية متأهبة في البحر لسد الطريق في وجه الغزاة. وبقيت الجزيرة حتى أيام الملك حيرام الأول الذي حكمها في القرن العاشر قبل الميلاد منقسمة إلى قسمين تفصل مياه البحر بينهما، فعمد حيرام إلى سدّ القناة المائيّة وتوسيع مساحة الجزيرة بكميات كبيرة من الصخور لتعرف صور في أيام هذا الملك حركة عمران وإصلاح لم يعرفها التاريخ من قبل.

وظلت صور الجزيرة حتى الألف الأول قبل الميلاد تنقل مياه الشرب بواسطة القوارب من البر، ثم ابتكرت القنوات تحت الأرض لتوصل المياه إلى الجزيرة من ينابيع رأس العين الموجودة حتى الآن. وعلى بعد مئتي متر من البوابة في صور هناك برج قديم مربع الشكل في داخله بئر يبلغ عمقها نحو الخمسة أمتار بينما لا يتجاوز ارتفاع المياه فيها ٧٥ سنتمتراً. ومنها كانت نساء صور لعهد قريب يملأن جرارهن. ويروي التراث الصوري أن حجراً كبيراً من الرخام كان إلى جانب الينبوع جلس عليه السيد المسيح عندما كان ينتظر عودة بطرس ويوحنا اللذين أرسلهما إلى المدينة ليجلبا خبزاً، وأن يسوع أكل معهما وشرب من مياه النبع.

ويقول المؤرخون أن التاريخ لم يعرف بكل مراحله مدينة قاومت ببطولة كمدينة صور التي جابهت كل الحروب المتتالية، إن كان سياسياً أو عسكرياً، من أشوريين وبابليين وكلدانيين وفرس ويونانيين ورومانيين... حتى أنطونيو اعتذر من كليوباترا حبيبته حين طلبت منه أن يقدم لها صور فكان جوابه: «كل مدن الساحل الفينيقي هديّة لك، ما عدا صيدا وصور»، نظراً لاستقلالهما الموروث منذ أقدم الأزمنة.

الاسكندر يصل الجزيرة بالبر

صور الأبيّة التي عصيت على الجميع انهزمت بعد مناوشات وحصار دام سبعة أشهر أمام فتوحات الاسكندر المقدوني الذي وصل الجزيرة بالبر بسد عرضه نحو ٦٠ متراً، وقتل قسماً كبيراً من شعبها والقسم الباقي بيع أو صلب، ليكون تاريخ آب ٣٣٢ ق. م. أوّل هزيمة لصور تفقد خلالها استقلالها الذي حافظت عليه قروناً عدة.

والسبب الذي دفع الاسكندر لفعل المستحيل لاحتلال صور اعتقاده بأن حضارة اليونان تعود بالأصل إلى صور، وأن الأبجديّة دخلت إلى اليونان عندما كان قدموس (ابن صور) يفتش عن شقيقته أوروبا التي خطفها كبير الآلهة عند اليونان، وهنا يعتقد أن قدموس أطلق اسم أوروبا على القارة الأوروبيّة خلال رحلته للبحث عن شقيقته.

ولكن، بعد ١٧ عاماً، قامت صور من تحت الأنقاض، واستعادت زعامتها على المدن الفينيقيّة وأصبحت مرفأ مهماً لصناعة السفن، كما أصبحت تقام فيها مهرجانات واحتفالات رياضيّة كبيرة كل خمس سنوات. وبلغت صور أوج ازدهارها التجاري والسياسي في عهد الرومان، إذ منحها الامبراطور هادريان لقب عاصمة فينيقيا، فيما رفعها الامبراطور سبتيموس سويروس إلى مرتبة مستعمرة «تتمتع بالشرع الروماني» مكافأة لولائها له في نزاعه مع نيجر على عرش روما، مع أنها ساهمت في إقناع السلوقيين عقب هزيمة قرطاجة ولجوء هنيبعل إليها، بالاشتراك مع هذا الأخير في الحرب ضد روما. وقد اشتركت فعلياً في هذه الحرب ومني أسطولها بخسائر جسيمة.

وإثر انتشار المسيحيّة بنت جماعة من مسيحيّي أورشليم الذين لجأوا إلى صور كنيسة أصبحت منذ نهاية القرن الثاني مقراً لأسقفيّة مسيحيّة. ويبرز مارينوس مطران صور كألمع أساقفة الشرق وأشهرهم في هذه الفترة. وبين العامين ٣١٣ و٣٢٣ أنشئت كنيسة جديدة على أنقاض الكنيسة القديمة التي هدمت خلال أحداث وقعت سنة ٣٠٣ فكانت أقدم كاتدرائيّة مسيحيّة وأفخمها في فينيقيا، إنما لم يبق

منها اليوم إلا أعمدة وأحجار مبعثرة.

مع البطولة المطلقة التي كان أهالي صور يواجهون بها كل الغزاة والطامعين بمدينتهم، تفوقوا على جميع شعوب العالم في أربعة ميادين: صك النقود، صب المعادن ونقشها، صناعة الزجاج والصباغ الأرجواني. فكانت صور أول مدينة فينيقيّة تصك نقوداً في أوائل القرن الخامس قبل الميلاد، وتبعتها بعد ذلك صيدون وأرواد وجبيل، وكانت هذه النقود تحمل على أحد وجهيها دلفيناً فوقِ الأمواج وصدفة الموركس أو الإلٰه ملقارت ممتطياً حصان البحر وعلى الوجه الثاني بوقاً، هو رمز الحكمة والمعرفة متكئة على صولجان ملكي.

ومن روائع صناعة الزجاج الصورية سمكتان من الزجاج الأبيض طول الواحدة منهما نحو ٥ سم تعودان إلى القرن الميلادي الأول اكتشفتا في صور مطلع القرن الحالي وهما موجودتان في متحف اللوفر. أما صناعة الأرجوان فأحاطوها بهالة من الكتمان والسريّة ليحافظوا على احتكارهم المطلق لهذه الصناعة. وتقول الأسطورة أن الإلٰه هرقل كان يتنزه في أحد الأيام على الشاطىء الفينيقي برفقة حبيبته تيروس، إحدى صوريات البحر الفينيقي، فعضّ كلبها على صدفة موجودة بين الصخور عرفت بصدفة الموركس ولوّن فمه بعصارتها. فأعجبت تيروس بها وأقسمت أنها لن تستقبل الإلٰه إذا لم يقدم لها ثوباً مصبوغاً بهذا اللون الأحمر، ما دفع الإلٰه إلى البحث عن كميّة كبيرة من هذه الأصداف لاستخراج مادتها الملونة لصباغ رداء لحبيبته التي بنى لها صور وأطلق عليها اسمها. وأصبح اللباس الأرجواني في تلك الفترة يدلّ على العظمة والمقام الرفيع. ولم يكن مسموحاً لأحد أن يرتديه إلاّ الملك والكاهن ثم أتيح ذلك لكبار رجال البلاط والأشراف. وكان يساوي الغرام من الصباغ الأرجواني بين الـ ١٠ والـ ٢٠ غراماً من الذهب.

وعلى الرغم من أن صور فقدت بعد الرومان سيطرتها على المدن الفينيقيّة بسبب الحروب والهزات الأرضيّة المتتالية عليها، فقد بقيت حاضرة فينيقيا كما بقيت حتى منتصف القرن الماضي منبعاً للحجارة الجيدة وأعمدة الغرانيت والرخام يتهافت عليها وجهاء مدن الساحل من بيروت إلى عكا، حتى يزينوا بها قصورهم

ومنازلهم.

أولى المحاولات الجديّة للكشف عن مخبآت أرض صور كانت الحفريات التي أجراها العالم الأثري أرنست رينان سنة ١٨٦٠ بعدما كانت الحفريات قبله لا تتعدى البحث عن الذهب والكنوز المدفونة من جانب بعض الهواة ولصوص الآثار. وبعد هذا التاريخ ظهرت تدريجياً آثار صور؛ ففي سنة ١٨٨٥ تمّ العثور على أول كتابة فينيقيّة عن صور تعود للقرن الثالث قبل الميلاد. وسنة ١٩٠٣ أجرى أمين متحف اسطنبول بعض الحفريات فعثر على مدافن ونواويس رخاميّة تعود للعهد الروماني، ولكن معظمها أرسلها إلى اسطنبول. وسنة ١٩٢٧ عثر على مذبح صخري لثلاثي صور الإلٰهي: عشتروت أم الآلهة، بعل شميم إلٰه السماء، وثمرة حبهما ملكارت إلٰه الشباب.

وسنة ١٩٤٧ باشرت المديريّة العامة للآثار بإشراف موريس شهاب إجراء حفريات منتظمة في مكانين، الأول عرف بحفريات البص والثاني بحفريات المدينة. غير أن الظروف الماديّة ونشوب الحرب اللبنانيّة سنة ١٩٧٥ حالتا دون استمرار عمل المديريّة التي كانت وصلت بحفرياتها إلى الطبقة الرومانية بعدما أزالت عدة أمتار من التراب وكشفت عن قوس النصر وملعب لسباق الخيل، ومسرح، وشوارع معبدة بالفسيفساء وبالأحجار وعلى جوانبها أعمدة، والمدافن، وحديقة عامة ومنازل، ومعابد، وعبارة المياه، وملعب رياضي، وحمامات، فضلاً عن نقود وتماثيل.

ففي حفريات البص عند النقطة التي اتصل فيها سد الاسكندر بالبر الصوري تمّ اكتشاف مدينة رومانيّة بأكملها يزينها قوس النصر الذي طبع على ورقة الـ ٢٥٠ ليرة لبنانيّة. ولكن، قبل أن نصل إلى قوس النصر، نلاحظ أن الطريق عالية ثم تبدأ بالانخفاض تدريجياً لأنها عبدت إبان العهد البيزنطي فوق الطبقة الرومانيّة التي كانت محفرة وبالكاد تعتبر طريق مشاة، وهذه الطريق عبدت على شكل قشر السمك وعلى جوانبها المدافن الرومانيّة التي تعود نواويسها الموجود بعضها اليوم في المتحف اللبناني والآخر موزع على المتاحف الأوروبيّة، إلى منتصف القرن

الثاني وأوائل القرن الثالث بعد الميلاد. ومن بين هذه النواويس عشرة نقشت عليها رسوم أخذت مواضيعها من الإلياذة والأساطير الإغريقيّة كحصار طروادة، وحياة أخيل، ومعارك تخوضها الفتيات المحاربات، ومناظر رقص تؤديها حاشية باخوس الثملة. وتخص أغلب هذه النواويس أصحاب الحرف الصناعيّة، وخصوصاً الذين كانوا يستخرجون صدف الموركس ويصنعون منه الصباغ الأرجواني.

وعثر على يمين هذا القسم على كنيسة رومانيّة صغيرة، وإلى الشمال على معبد روماني تحته نواويس، ومنازل سكن بعضها مبلط بالرخام أو الموزاييك، وحديقة عامة تتوسطها بركة مياه توزع الماء بواسطة قنوات خاصة، وسجادة من الموزاييك عليها رسوم أزهار بأشكال مختلفة، ومعبد روماني ينزل إليه بدرج حجري، ومعصرة مستديرة الشكل مبلطة بالسيراميك الزهري ويعتقد أنها كانت إما لعصر الخمر أو الزيتون.

وبين المدافن من الجهة الجنوبيّة نرى ركائز مربعة ضخمة تمتد إلى داخل قوس النصر محاذية للرصيف الجنوبي، وهذه الركائز تعلوها القناطر التي كانت تحمل عبارة المياه التي كانت تؤمن المياه للمدينة من رأس العين التي تبتعد عن صور نحو ٧ كيلومترات وفيما أضحت هذه القناة دون جدوى ما زال قسم كبير منها خارج الحفريات صالحاً وقيد الاستعمال ليومنا هذا.

ولدى ولوجنا قلب المدينة يستقبلك قوس النصر الذي كان أكبر وأعلى مما هو عليه الآن، حيث كانت على جانبيه قنطرتان مزدانتان بعواميد يصل طولها لارتفاع القوس ويتخلّلها من فوق عتبة ضخمة يتوسطها تمثال كبير من البرونز. ثم تسلك الطريق الرومانيّة المعبدة بأحجار كلسيّة مستطيلة الشكل وكبيرة الحجم، وتعلوها على الجانبين عواميد من الحجر الرملي. ويتألف كل عمود من عدة أحجار وتعلوه الأفاريز على الطراز التوسكاني. وكانت هذه العواميد مورقة بالكلس والرماد لتقليد عواميد الرخام. وإلى جانب هذا الشارع يقع المدرج الروماني الذي كان ملعباً لسباق عربات الخيل ويعد من أكبر ما عرفه العصر الروماني من ساحات السباق.

يعود هذا المدرج للقرن الثاني الميلادي وكان مغطى بستة أمتار من الرمل وله عدة مداخل وهو على شكل حدوة حصان، مستطيل الشكل وينتهي طرف من أطرافه بنصف دائرة، تحيطه مقاعد من كل الجهات ويتسع لنحو ٣٠ ألف متفرج. وكانت تتخلّله منصة شرف مخصّصة للحاكم والأشراف يدخل إليها عبر درج خاص.

وكان يتوجّب على المشتركين في السباق أن يدوروا ٧ مرات حول الحوض الواقع في وسط المدرج. والمكان الأكثر خطراً بالنسبة للعربات كان عند أطراف الحوض حيث كانت تقع حوادث عديدة. وتتسع حلبة السباق لـ ١٢ عربة تستطيع المشاركة في السباق دفعة واحدة.

ورمّمت مديريّة الآثار بين سنتي ١٩٧٠ و١٩٧١ ثلاثة أقسام من المدرج لإعطاء فكرة ولو جزئية عن المدرج المبني فوق غرف كبيرة معقودة كانت تستعمل بعضها مرابض للخيول والبعض الآخر كمحالّ تجاريّة.

أما حفريات المدينة فكشفت عن شارع معبد بالفسيفساء مغطّى بالرخام الأبيض، وعلى جانبيه أعمدة من الرخام الأخضر المستورد من اليونان. وإلى شرق هذا الشارع نلاحظ بقايا الحمامات الرومانيّة التي ما كان لأي مدينة إغريقيّة أو رومانيّة غنى عنها. ولم يبق في هذه الحمامات إلاّ بقايا أساسات والفسحة الصحية التي تقع تحت بلاط الحمام. وكان يمر فيها الهواء الساخن، وهي عبارة عن عواميد من الفخار، وكانت نتيجتها كنتيجة التدفئة المركزية اليوم.

وتحيط بهذه الحمامات من الجنوب والشمال ملاعب للرياضة: رياضة بدنية، ملاكمة، ومصارعة. كانت تحيطها أعمدة من الغرانيت الرمادي ترمّم القسم الجنوبي منها.

وإلى غرب الشارع يقع المسرح الروماني الفريد من نوعه في الشرق وكان مخصصاً لنشاطات مسرحيّة أو ما يشابه، نراه مستطيل الشكل اليوم لكنه كان مربعاً تقريباً (٤٥ × ٤٣ متراً) تحيطه مقاعد حجرية خمسة، وكان يتسع لنحو ألفي شخص، وعلى جوانبه خزانات للمياه تتراوح أبعادها بين الأربعة والخمسة أمتار

متصلة مع بعضها البعض من ثلاث جهات وكانت تؤمن المياه للمنطقة السكنيّة الرابضة إلى جنوب المدرج.

وكانت المياه تصل إليه بواسطة قساطل فخارية تحت الأرض مصدرها عبارة المياه التي وجدت في حفريات البص. أما المنطقة السكنيّة فلم يبق منها شيء والحفريات فيها لم تكتمل.

وإلى غرب المدرج تقع المدافن الحديثة التي من المحتمل أن يكون تحتها حسب ما يؤكد العلماء أهم آثار صور، بعدما عثر عند حدودها على كتابات مسماريّة وأدوات فخاريّة تعود للألف الثاني قبل الميلاد.

وإلى غرب هذه المدافن هناك الكنيسة الصليبيّة التي لم يبق منها إلاّ أربعة أعمدة كانت تحمل قبة الكنيسة. هذه الأعمدة من الغرانيت الزهري يبلغ قطر دائرة كل عمود نحو المتر، ويعتقد بعض العلماء أن هذه الأعمدة قد جلبت من معبد ملكارت ـ هرقل.

أنشئت هذه الكاتدرائيّة بعد دخول الصليبيّين إلى المنطقة في ٢٩ حزيران سنة ١١٢٤ فوق شارع روماني عرضه عشرة أمتار كان مزيناً بأعمدة من رخام وسنة ١١٨٧ وخلال معركة حطين هاجر الصليبيّون الموجودون في أورشليم وقصدوا صور. وأصبحت هذه الكاتدرائيّة المكان الذي كانت تعقد فيه الأعراس الملكيّة وتنصيب الملوك واحتفالات دفن الملوك. وإلى جانب هذه الكاتدرائيّة نلاحظ وجود آثار تعود لأساسات أبنية صليبيّة يعتقد أنها كانت مقر الحاكم.

وعلى طريق صور ـ قانا يرتفع على الطريق بناء ضخم قديم هو قبر الملك حيرام، علوه ٦ أمتار مربع الجوانب وفي أسفله حجارة كبيرة عرضها ٢٧٠ سنتمتراً وقد وجد في داخله كمية كبيرة من الأواني الذهبيّة والفضيّة والنحاسيّة وتماثيل ثمينة.

قرطاجة

كانت قرطاجة أهم ما انبثق عن صور، فعندما أوصى الملك متان عام ٨٢١ ق. م. بالملك لولديه بيغماليون وأليسار ليحكما عرش صور، رفض الشعب أن

تشارك أليسار أخاها الحكم فرضخت أليسار للشعب وتزوجت عمها أسرباس كاهن ملكارت الذي كان منصبه في المرتبة الثانية بعد الملك. غير أن طمع بيغماليون بالثروة دفعه إلى قتل عمه على أمل أن يحصل على ثروته التي كانت كبيرة، فغضبت أليسار من أخيها بسبب جريمته ورحلت إلى الشاطىء الإفريقي واشترت أرضاً أنشأت عليها قرطاجة، أي المدينة الجديدة. وبقيت هذه المدينة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بصور منذ نشأتها على الساحل الإفريقي حتى تدميرها سنة ١٤٦ ق. م.

الفصل السادس

طرابلس

طرابلس متحف حي تجاوزت فيه المتناقضات واختلط القديم بالحديث، وتعانق الشرق بالغرب بعد رحيل الصليبيين وحلول المماليك في جو مدهش من التجانس والانسجام، وكأننا نقف على أعتاب الأجيال المنصرمة، حيال أعجوبة التاريخ وبدعة الزمن الحاضر.

كأننا نقف على ضفتي المجد، وطرابلس هي المجد عينه، حين تصير الضفاف شواهد على حضارة لن تموت. هذه المدينة تكاد تكون وحدها من بين المدن الأثرية اللبنانية التي تحافظ على وجهها القديم وتعد مدينة عتيقة، حتى أن الرواة والكبار في السن يقولون إن طرابلس لم تتغير معالمها مثلما هي الحال في البصرة وبغداد، لولا بعض العمارات الحديثة، وهم يخشون من أن تغزو المدينة الإسمنتية معالم الماضي فيندثر التراث. عاصمة الشمال تقع في منتصف الساحل الشرقي لحوض البحر الأبيض المتوسط، وتبعد مسافة ٨٨ كلم شمالاً عن مدينة بيروت، وتمتد على ضفتي نهر قاديشا المعروف بنهر أبو علي.

يعود اسمها إلى مؤسسيها الفينيقيين أهالي صور وأرواد وصيدا في القرن السابع قبل الميلاد، الذين أسسوا مدينة على امتداد الشاطىء الشمالي الشرقي لشبه جزيرة الميناء وأطلقوا عليها اسم «أثر» وكانت تتألف يومئذٍ من ثلاثة أحياء ضربت حولها الأسوار: كايسا ومايسا ومخلات.

سكنت المدينة الجديدة عند قيامها مجموعة من أهالي المدن الثلاث المؤسسة والذين برعوا في صناعة السفن الفينيقية المشهورة حتى لقبوا بعرائس البحر. وبعد فترة من الزمن أخذت طرابلس اسم المدينة الثلاثية «تريبوليس» التي عرّبها الفاتحون العرب فصارت طرابلس. ولم تلبث مع الأيام ـ لأهمية موقعها الاستراتيجي ـ أن أصبحت عاصمة الاتحاد الفينيقي ومقراً لمؤتمره السنوي العام الذي كان يضم ممثلين عن سكان جميع المدن الفينيقية والذي عُرف بأول مولد للديمقراطية في العالم.

دخلها القائد اليوناني الاسكندر سنة ٣٣٣ ق.م. فرحبت به كمحرر لها من نير الفرس، ثم انتقلت إلى حكم سلوقس الأول ومن ثم خلفائه. وفي عام ٦٤ ق.م دخلت تريبوليس ضمن سيطرة الامبراطورية الرومانية التي قامت بتجميل المدينة بالمباني الفخمة للإلهة عشتروت وللإله أدونيس. ولكن لم يصل شيء من هذه الأبنية إلا ما استعمل من أعمدتها الرخامية وبعض أحجارها المنقوشة في بناء المساجد والمدارس في المدينة القديمة وذلك لتعرضها لزلزال عنيف بين العامين ٤٥٠ و ٤٥٤ دمّر الكثير من منشآتها ودك مبانيها. إلا أنه قد أعيد بناؤها من جديد قبل الفتح العربي سنة ٦٣٥م.

وفي عصر بني أمية أصبحت طرابلس قاعدة بحرية ودار صناعة لتوافر أخشاب الأرز اللبناني وظلت طوال العصر الأموي أحد ثغور الشام الحصينة التي اهتم بها الخلفاء الأمويون فرمموا قلاعها وأسوارها تحسباً لأي غزو بحري.

ثم استولى على طرابلس كل من الدولة الطولونية، والدولة العباسية والأخشيدية وكذلك الفاطمية، إلى أن استقل بها أمراء بني عمار فعرفت المدينة في أيامهم مرحلة من الطمأنينة والازدهار في مرافق العمران والاقتصاد والصناعة، وارتفع مستوى العلم والثقافة وبلغ أوجّه بعد إنشاء مدرسة ومكتبة ذاع صيتها في ذلك الزمان، واعتبرت من أرقى المكتبات العربية؛ إذ كانت تحتوي على أكثر من تسعمئة ألف مجلد تبحث في شتى المواضيع العلمية والأدبية وسميت بـ«دار العلم».

وسنة ١٠٩٩ وصلت جيوش الحملة الصليبية الأولى إلى طرابلس بقيادة كونت دي تولوز ريمون دي سان جيل الفرنسي الذي حاول الاستيلاء عليها. لكنه لم يوفق باقتحامها فلم يكن أمامه إلا محاصرتها. وعمد إلى تشييد قلعة سنة ١١٠٣ على الناحية الشرقية الشمالية فيها بالقرب من نهر قاديشا، عُرفت باسم قلعة «سان جيل» نسبة لمنشئها. فراح الأمير فخر الملك المعروف بـ«أبو علي» يغير على هذه القلعة بين الفينة والفينة لإضعاف حاميتها. وفي ٢٨ آذار سنة ١١٠٥م. هاجمها الأمير أبو علي فقتل من فيها وأحرقها وتوفي القائد ريمون دي سان جيل على أثر

الحريق الذي شب في القلعة. وعرف نهر قاديشا بعدئذٍ باسم أبو علي، نسبة إلى فخر الملك أبو علي بني عمار. وتولى حكم طرابلس من بعده بيت تولوز. وبعد حصار دام عشر سنوات سيطر الصليبيون على المدينة وأتلفوا ثروات المدينة ومن بينها «دار العلم». وبعد ذلك تعرّضت طرابلس لزلزالين هائلين، الأول سنة ١١٥٨ والثاني سنة ١١٧٠، فأعيد بناؤها من جديد في هذا العصر وأصبحت مركزاً أسقفياً لاتينياً شيدت فيها الكنائس، والأديرة والمستشفيات. . .

وبقيت طرابلس تحت حكم الصليبيين حتى ١٢ نيسان سنة ١٢٨٩، تاريخ قيام سلطان المماليك الملك المنصور قلاوون باحتلالها، بعد حصار دام ٣٨ يوماً. وأمر قلاوون بهدم المدينة وبنائها مرة أخرى بعيداً عن الساحل حتى تتجنب المدينة الجديدة الأضرار التي قد تصيبها من غارات الصليبيين الذين تكتلوا بعد ذلك في عكا وقبرص، وأشاد العمران فوق العمارات الصليبية المهدمة، فأقام الحمامات وشيّد المساجد والمدارس. . . وفي القرن الرابع عشر بلغت طرابلس ذروة عظمتها حيث جمّل سلاطين المماليك المباني الفخمة وكثرت أسواقها ومرافقها ومساجدها ومدارسها، وخاناتها التي كانت تأوي التجار من سائر البلاد.

وفي القرن السادس عشر دخل العثمانيون طرابلس التي أصبحت تتقلب على أيادي الحكام الذين تعينهم الدولة العثمانية، ولم تلبث طرابلس أن تنازلت عن مكانتها الأولى لمدينة بيروت التي أصبحت العاصمة الفعلية للبلاد، في عهد الانتداب الفرنسي وعهد الاستقلال.

قلعة سان جيل

قلعة «سان جيل» هي مزيج من آثار الصليبيين والمملوكيين والعثمانيين. . . خليط في الأساليب والفنون المعمارية المختلفة. بناها الكونت دو سان جيل كحصن يمكنه من الصمود على محاصرة المدينة التي استسلمت للصليبيين بعد حصار دام عشر سنوات.

بُنيت قلعة سان جيل من الحجارة الرملية الضخمة المنحوتة التي اقتطعت من

المقالع الواقعة في محلة البحصاص جنوب طرابلس القلعة، وهي شبه مستطيلة الشكل، متعددة الأضلاع، يبلغ طولها ١٣٦ متراً بعرض ٧٠ متراً، محصنة عند مدخلها الرئيسي بخندق عميق منحوت في الصخر يتجاوز طوله ٧٠ متراً وعرضه خمسة أمتار بعمق ثلاثة أمتار. وكان هناك جسر نقال فوق الخندق يوضع حسب ظروف السلم والحرب. والقلعة في الداخل محصنة بخمسة وعشرين برجاً: منها برجان بناهما السلطان سليمان العثماني سنة ١٥٣١، ويبلغ ارتفاع كل منهما خمسة أمتار، وفي القسم الجنوبي والغربي توجد سبعة أبراج طول جدرانها سبعة أمتار، أحدثت فيها فتحات للمدافع الحربية. ومن أبراجها الشرقية برج مستدير بقطر ١٩ متراً. وتبدو مناعة القلعة في ارتفاع أسوارها التي تبلغ في بعض الأماكن تسعة عشر متراً بسماكة مترين ونصف، أما تحصيناتها الداخلية فهي ممثلة ببرجها الشمالي الكبير وهو بناء صليبي ذو شكل مربع طول ضلعه ٤١ متراً ويستوعب ثلاثة مدافع.

وفي الفسحة الداخلية عدة «قشلات» عسكرية وسجون وغرف عديدة تدل على استعداد القلعة الكافي للمقاومة وثباتها وقت الحصار، ولها بابان صغيران عدا بابها الرئيسي الكبير. وهناك عدة ممرات وسراديب وأنفاق منها يصل إلى قصر الوالي والقسم الآخر إلى مختلف مناطق المدينة، وفيها ثلاثة صهاريج للماء.

وعندما سقطت طرابلس في أيدي المماليك عام ١٢٩٩، أصاب القلعة سيل من التخريب والتدمير، ولم يبق منها سوى الأقسام السفلية من أسوارها وبعض الأبراج والبوابة الداخلية وبقايا الكنيسة الصليبية والقبور. فما كان من الأمير المنصوري في أوائل القرن الرابع عشر إلا أن أعاد بناء أسوار القلعة وأبراجها لحماية المدينة من الغزوات، وإليه تنسب اليوم بوابة القلعة الرئيسية. كما زينت القلعة بنقوش عدة أقدمها النقش الموجود فوق البرج الشمالي، وهو محفور في الرخام الأبيض، ويرجع عهد هذه الكتابة إلى سنة ١٣٤٥، عهد السلطان شعبان ابن السلطان الناصر محمد بن السلطان المنصور قلاوون، وهو عبارة عن منشور عسكري.

وسنة ١٥٢١ رمم بعض أجزائها بأمر من السلطان سليمان القانوني، ثم في

عهد يوسف باشا سيف في القرن السابع عشر.

برج السباع

يشكل هذا البرج واحداً من سلسلة أبراج وحصون أقيمت في عصر المماليك لحماية الساحل الطرابلسي من غزوات الصليبيّين الذين استقروا في قبرص على أثر طردهم من الشاطىء الشامي في نهاية القرن الثالث عشر. وقد أقيم في أواسط القرن الخامس عشر، وعلى الرغم من كون اسمه الأصلي ما يزال موضع أخذ ورد، فقد عُرف بهذا الاسم بسبب الأسود المحفورة التي كانت تزين مدخله. ويتم ولوج البرج المؤلف من طبقتين عبر بوابة مبلقة. وتظهر في جدرانه أعمدة رومانية من الغرانيت كانت تستعمل كمرابط تربط البانية الخارجية بالبانية الداخلية لتمتين البُنيان.

الجوامع والكنائس

يعود أغلب الجوامع لما بين القرن الثالث عشر والقرن الخامس عشر وسمي معظمها على أسماء منشيئها وتضم أضرحتهم. تتميز هذه الجوامع بخصائص الفن المملوكي، فطرابلس تعتبر المدينة الثانية بالعمارة المملوكية بعد القاهرة إلا أنها تتميز بخصائص عدة هندسية غير معروفة بمساجد مصر، منها احتواء المساجد على الإيوان الذي يتوسطه حوض الوضوء إنما في مصر يكون حوض الوضوء خارج المسجد وقد اقتضت الطبيعة والجو البارد لساحل الشام بشكل عام هذه الطريقة في العمارة.

كما تتميز هذه الجوامع بهندسة معينة لا تخلو من الزخرفة والنقوش وهي مبنية أغلبها من صفوف من الحجارة البيضاء والسوداء يتخللها نوافذ عديدة وتتخذ معظم مآذنها شكل البرج الحربي لأن المدينة كانت عرضة لغزوات الإفرنج وغيرهم.

ـ جامع طينال

أجمل جوامع طرابلس وأهمها، يعتبر من أضخم وأجمل المساجد المملوكية في بلاد الشام حتى انه يضاهي مساجد القاهرة كلها. أقيم هذا الجامع مكان كنيسة

الكرمليين الصليبية التي كانت بدورها تقوم على ما يبدو على أنقاض معبد روماني مكرّس لعبادة «زوش القدوس» أو «البعل القدوس». وقد بناه عام ١٣٣٢ الأمير سيف الدين طينال الذي ما يزال ضريحه على مقربة من قاعة الصلاة الداخلية. ويمتاز هذا الجامع بعدد من أعمدة الغرانيت ومن تيجان الأعمدة التي تعود إلى العصر الروماني المتأخر والتي أعيد استعمالها في قاعة الصلاة الخارجية. أما البوابة التي تفصل بين قاعتي الصلاة، بمقرنصاتها ومأطوراتها وكسوتها المرمرية الملونة، فتُعتبر من أبدع منجزات الفن المملوكي. أما المئذنة فهي مربعة الشكل ومزخرفة بأشكال وألوان متناسقة تنتهي في أعلاه بشرفة تتخللها نوافذ مستطيلة ويعتقد أحد المستشرقين أن هذه المئذنة كانت في الأصل برج الاجراس التابع للكنيسة.

ـ الجامع المنصوري الكبير

أقدم وأضخم الجوامع التي بناها المماليك في المدينة بناه السلطان الأشرف خليل بن قلاوون بين عامي ١٢٩٤ و١٣١٥ مكان كنيسة طرابلس الصليبية الكبرى التي كانت تعرف باسم «كنيسة العذراء ذات البرج». ويتألف الجامع من صحن فسيح يتوسطه حوض الوضوء وتحيط به الأروقة المعقودة ويُفضي إلى قاعة الصلاة المقببة. وما زالت بعض أجزاء الجامع تحتفظ بعدد من الزخارف ذات النمط «الرومنّي». ومن بين أبرز المعالم المتبقية من هذا العصر الباب الشمالي وبرج المئذنة اللومبردي الطراز. وتزين جدران الجامع لوحات مرقومة تعود إلى عصر المماليك، بعضها تاريخي يفيد عن مراحل البناء وبعضها الآخر تنظيمي يتضمن نصوص مراسيم تتعلق ببعض الأمور الحياتية اليومية.

ـ جامع التوبة

وعندما أمر السلطان محمد بن قلاوون ببناء جامع المنصوري الكبير واكتشف بأن هذا الجامع خال من أعمال زخرفية ونقوش حسب المتفق عليه غضب الملك وهدد المهندس المتعهد سالم الصهيوني بمحاكمته والاقتصاص منه ولكن المهندس ركع وطلب السماح وتعهد ببناء جامع آخر، فكان هذا الجامع الذي يشبه جامع المنصوري الكبير وعرف من جانب الأهالي بجامع التوبة.

ـ جامع المعلّق

يعود تاريخ بناء هذا الجامع إلى أواسط القرن السادس عشر م. ويبدو أنه سمي بالمعلق لكونه أقيم فوق الطابق الأرضي ولا يُفضي بالتالي إلى الطريق العام كما كانت العادة تقضي بذلك. ويمتاز داخله ببساطة تصميمه وعدم تناظر أجزائه وتناسقها. ويحيط به من الخارج صحن وحديقة، وقد جُهِز الصحن بمحراب ليكون مصلى خارجياً.

ـ جامع البرطاسي

بناه الأمير شرف الدين عيسى بن عمر البرطاسي الكردي في أوائل القرن الرابع عشر، وتعد أبوابه وغرفه من أجمل ما أبدعه الفنانون في عصر المماليك، ويعتبر محراب الجامع من أروع المحاريب المملوكية إطلاقاً إذ تتزين قنطرته العالية بلوحة نباتية من فسيفساء ذات اللون الفيروزي على أرضية مذهبة.

وتتميز مئذنته عن مآذن جوامع طرابلس خصوصاً بواجهتها الغربية ويعتقد البعض أن مهندس هذه المئذنة أصله من الأندلس هاجر إلى طرابلس وطبع الزخرفة الأندلسية على بعض آثارها، تتمتع هذه المئذنة بميزتين الأولى أنها تقوم فوق تجويفة الباب الرئيسي بشكل مباشر، والثانية تأثير الهندسة الأندلسية على بنائها.

ـ جامع الطحان

بناه الأمير يونس المعني شقيق الأمير فخر الدين المعني الثاني سنة ١٦٤١، حرم الجامع مرّبع الشكل، في داخله أربعة أعمدة من الغرانيت تنتهي بتيجان بيزنطية خصصت لحمل قبة الجامع التي تتوسط الحرم، وتعتبر مئذنة هذا الجامع من أقصر المآذن في طرابلس وأغناها زخرفة بشكلها وأحجارها ونوافذها.

ـ جامع أرغون شاه

بني سنة ١٣٩٧ بأمر من الأمير سيف الدين أرغون شاه الإبراهيمي، يتميز بمئذنته الإسطوانية الشكل والتي تنتهي بشرفة لها ١٠ أضلع مزينة بزخارف هندسية، وعلى مدخل هذا المسجد نقش كتاب من أربعة أسطر يتضمن مرسوماً صدر سنة

١٤٧١ يأمر بالحفاظ على الجامع والعناية به.

ـ جامع العطار

بني في القرن الثالث عشر على أنقاض كنيسة تعود إلى عهد الصليبيين تدخله من ثلاثة أبواب: الباب الرئيسي أجملها في الهندسة ويقع من الجهة الشرقية، وتعتبر مئذنته من أفخم المآذن في المدينة وهي على شكل برج مربع ينتهي بشرفة مكعبة الشكل، ترتكز على أربعة أعمدة من الرخام.

ـ جامع القويسية

أمر ببناء الجامع محي الدين القويسي سنة ١٤٦١ هو مربع الشكل، أرضيته من الرخام تدخل إليه من باب صغير يؤدي إلى فناء الجامع ويقع المحراب في داخل إطار مستطيل الشكل مزدان بزخرفة مملوكية. يتميز هذا المسجد بقبته ومئذنته الإسطوانية الشكل التي تجددت سنة ١٥٣٥.

ـ جامع محمود بك

يعود لسنة ١٥٧٩ أي للعهد العثماني بناه محمود السنجق ويتألف هذا الجامع من قسمين: غربي قديم شيده سنجق ويحتوي على أعمدة ضخمة تشكل الركائز الأساسية لقبة الجامع التي تعتبر من أكبر وأعلى قبب مساجد المدينة. أما الشرقي فهو أوسع من الغربي وحديث العهد. ونلاحظ في مئذنة الجامع التأثيرات العثمانية وهي إسطوانية الشكل تحمل شرفة ضخمة.

ـ كنيسة القديس يوحنا على «تلة الحجاج»

في غضون السبعينات من هذا القرن، تمّ كشف أجزاء مهمّة من هذه الكنيسة التي تقع على بعد نحو ٢٠٠ متر إلى الجنوب من القلعة، داخل جبّانة الموارنة القائمة على «تلة أبي سمرا». وقد حلت هذه الجبانة مكان الجبانة الصليبية التي حلت بدورها مكان الجزء الجنوبي من جبانة عصر بني عمار. وتتألف هذه الكنيسة ذات العمارة البديعة من سوقين متلاصقين، أكبرهما ينتهي بحنية نصف دائرية، وأصغرهما بحنية مستطيلة الشكل.

المدارس

عندما حكم أمراء بني عمار الذين كانوا أسرة من العلماء والحكماء طرابلس في القرن الحادي عشر عرفت هذه المدينة مرحلة من الإزدهار والطمأنينة وارتفع مستوى العلم والثقافة فيها وبلغ ذروته خصوصاً بعد إنشاء مدرسة ومكتبة ذاع صيتها وسميت بدار العلم، اعتبرت هذه المكتبة من أرقى المكتبات العربية إذ كانت تحتوي على أكثر من ٩٠٠ ألف مجلد تبحث في شتى المواضيع العلمية والأدبية كتبت جميعها بالخط اليدوي وكانت قيمتها لا تقدر بثمن إلا أن هذه المكتبة احترقت على أيدي الصليبيين عندما استولوا على المنطقة في أوائل القرن الثاني عشر.

ولكن ظاهرة إنشاء المدارس والصروح العلمية بقيت مستمرة وقد شيّدت في كل حي من طرابلس إلى جانبه جامع مدرسة في داخلها بيت للصلاة تتزين بأشكال هندسية متناسقة وكانت للمدرسة وظيفتان: التعليم وإقامة الصلوات باستثناء صلاة الجمعة لعدم وجود منابر فيها. ومن مدارس طرابلس:

المدرسة القرطاوية

من أفخم وأجمل آثار طرابلس الاسلامية ومن أكبر المدارس المملوكية بناها الأمير سيف الدين قرطاي بن عبد الله الناصري أثناء نيابته لولاية طرابلس سنة ١٣١٥م. ويعتقد البعض أن هذه المدرسة أقيمت مكان الكنيسة الاسقفية، وتتميز بوابتها بمقرنصاتها وبمأطورتها الرخامية المتعددة الألوان. يتوسط باحة المدرسة من الداخل حوض للوضوء من الرخام مربع الشكل، في داخله نافورة مياه وفي اعلاه قبة عاليه يتخللها اربع نوافذ.

تقسم المدرسة الى قسمين الأول يحيط بالحوض والثاني بواق عال يضم المحراب الذي يعبر عن تناسق كامل في تكوين العناصر الهندسية والزخرفية المملوكية. أما الأرضية فهي من الفسيفساء الملوّن ويؤلف تكوينات هندسية فنية. وفي آخر الرواق نرى ضريحا مزينا بقبة صغيرة لا يحمل أي كتابة ومن المحتمل أن يكون لمشيّد المدرسة.

تعتبر واجهة المدرسة بمثابة لوحة اعلانية للمراسيم السلطانية حفرت على ألواح حجرية ويرفع مضمونها المظالم عن أهالي نيابة طرابلس.

المدرسة الطواشية

أقيمت هذه المدرسة والضريح القائم إلى جانبها في غضون النصف الثاني من القرن الخامس عشر. وتتوسط واجهتها القبلية المبلقة بوابة تفضي يميناً إلى الضريح ويساراً إلى قاعة الصلاة، وتزين عقد هذه البوابة شعاعات متداخلة ضمن جوفة محارية الشكل، فوق صفوف من المقرنصات والعميدات المفتولة.

مدرسة البرطاسي

بُني هذا المجمع الذي يضم مدرسة وجامعاً في الربع الأول من القرن الرابع عشر للميلاد، وهو مسقوف بقبب على مدليات ذات مقرنصات تمتاز ببساطتها. وقد كسي جداره القبلي بالرخام المتعدد الألوان، فيما زين محرابه بالفسيفساء المذهبة. أما مئذنته المربعة التي تنير واجهاتها نوافذ متوأمة، فقد أقيمت فوق المدخل بشكل يدل على معرفة عميقة بقوانين الدفع الجانبي. وإلى يمين الداخل إليه يقوم ضريح واقف المدرسة «عيسى بن عمر البرطاسي».

الخانات

الخانقاه

أقيم هذا البناء الفريد في غضون النصف الثاني من القرن الخامس عشر، وكان في ما مضى معداً لإقامة المتصوفين المحاربين، ثم تحول في فترة من الفترات إلى دار للعجزة. ويتألف البناء من فناء تتوسطه بركة ماء ويحيط به من جهتيه الشرقية والشمالية عدد من الغرف الصغيرة. أما جهة الفناء القبلية فيشغلها إيوان مرتفع عن مستوى الفناء يزينه قوس مبلق يرتكز إلى عمودين من الغرانيت.

خان الخياطين

على الرغم من وصفه بـ«الخان» فإن تصميم خان الخياطين يختلف جذرياً عن

تصاميم الخانات الأخرى، بحيث يبدو وكأنه شارع مسقوف أقيمت على جانبيه الدكاكين. فقد أقيم هذا الخان في غضون النصف الأول من القرن الرابع عشر بأمر من الأمير بدر الدين محمد ابن الحج أبي بكر للميلاد. ويتألف من رواق طويل مسقوف يطل من على جانبيه عدد من الدكاكين التي تعلوها غرف النزلاء. وأمام مدخله الغربي عمودان من الغرانيت ما زال أحدهما يحتفظ بتاج كورنثي الطراز يعود إلى العصر الروماني المتأخر. أُعيد ترميمه سنة ١٩٩٢ بمساهمة ألمانية

خان المصريين

يعتبر مبنى مكملاً لخان الخياطين. أقيم هذا الخان على ما يبدو في غضون النصف الأول من القرن الرابع عشر للميلاد على المخطط التقليدي لمثل هذا النوع من البُنى. فهو يتألف من فناء تتوسطه بركة ماء وتحيط به طبقتان، خُصصت السفلى منهما للبهائم والبضائع، فيما خصصت العلياء للنزلاء. وتطل هذه الغرف على الفناء من خلال أروقة معومدة.

سوق الحراج

يرجع تاريخ إنشاء هذه البُنية الفريدة على ما يبدو إلى القرن الرابع عشر، وترتكز قبابها على أربعة عشر عموداً من الغرانيت لتشكل سوقاً مسقوفاً يشغله اليوم المنجدون، ورُبما كان في ما مضى سوقاً للدلالة كما يدل على ذلك اسمه. وقد يكون هذا السوق قد حل محل بنية تعود إلى حقب سابقة.

خان الصابون

كان مركزاً للقوات العثمانية، ثم سيطر عليه فخر الدين الثاني إثر انتصاره على يوسف سيفا سنة ١٦٢٠، وتحوّل المكان إلى مصنع للصابون مستطيل الشكل ويتألف من غرف عديدة هي اليوم محلات تجارية تطلّ على شرفة واسعة في وسطها بركة ماء.

خان العسكر

من أكبر خانات طرابلس. تبلغ مساحته نحو أربعة آلاف متر مربع، ويقسم

إلى قسمين: الجنوبي ويعود إلى عصر المماليك، ويتألف من طابقين. والقسم الثاني تطغى عليه الهندسة العثمانية، ويتألف من ثلاثة طوابق. بناه المماليك البحريون واتخذوا منه مركز حماية لمدينتهم الجديدة.

خان التماثيلي

من أهم الخانات التي بناها المماليك بالقرب من الميناء. مستطيل الشكل ويتألف من طابقين. أعيد ترميمه مرات عدة حتى أيام الانتداب الفرنسي. وكان يستعمل كمركز للجنود، خلافاً للخانات الأخرى التي كانت مخصصة للضيافة.

الحمامات

«النظافة من الإيمان» من أفضل الشعارات التي نادى بها الأمير عز الدين عابك الذي حكم طرابلس أواخر القرن الثالث عشر، وقام ببناء الحمامات العامة بعد أربع سنوات من خروج قلاوون من المدينة، ومن حمامات طرابلس نذكر:

ـ **حمام عز الدين**: بني هذا الحمام الأمير عز الدين عابك الموصللي بين عامي ١٢٩٤ و ١٢٩٨ على أنقاض كنيسة صليبية واستخدم نقوشها ورخامها وأحواضها لهذا الغرض.

يتميز هذا الحمام بمدخله الذي نقشت عليه أحرف لاتينية، وبقبواته ذات المضاوىء وغرفه الثلاث الكبيرة: صالة تبديل الملابس، غرفة الماء الوسطى، والبيت الساخن الذي يتألف من غرف عدة، وفي كل غرفة جرنان للمياه الساخنة والباردة.

ـ **حمام النوري**: بـنُي بين عامي ١٧٣٢ و ١٧٣٤. يتكون من غرف تعلوها قبوات وقبيبات بداخلها فتحات صغيرة لإدخال الضوء مسدودة بقيعان القناني الزجاجية الملونة. وأكبر غرف حمام النوري الغرفة المعروفة بالبيت الساخن، وتحيط بها مجموعة من المخادع الخاصة تسمى الخلوات.

ـ **حمام العبد**: وسمي كذلك على أثر جريمة وقعت على بابه أدت إلى مقتل

عبد كان الشاهد الوحيد على اغتيال أحد المقدمين في جيش آل سيفا. يتكون هذا الحمام من الداخل من قاعة استراحة وغرف تسمى الوسطاني والبيت الساخن المحاط بمجموعة من المخادع. وتعلو هذه الغرف قبوات وقبيبات تنفتح فيها المضاوىء المعروفة في بقية الحمامات. وما زال هذا الحمام يؤدي وظيفته في الوقت الحاضر.

ــ **حمام الجديد**؛ وقد سُمي كذلك لأنه بني عام ١٧٤٠ ونجد أن حمامات المماليك لا تزال تعمل منذ القرن الرابع عشر حتى الآن.

بنى هذا الحمام أسعد باشا العضم، ويتميز بمدخله الذي يعتبر من أجمل مداخل حمامات طرابلس، وهو يرتفع سبعة أمتار تقريباً تعلوه قنطرة مدببة، في سقفها يوجد سلسال حجري ضخم أضفى على الحمام قيمة جديرة بالتأمل. تدخل إلى الحمام لتستقبلك قاعة كبيرة تصطف على دائرها الآرائك المرتفعة. هي بهو الاستقبال وفي وسطها حوض ماء مثمن الشكل من الرخام، وفي زوايتها غرفة خاصة لخدمة الزوار، ويؤدي هذا البهو إلى ثلاث قاعات: البراني، وهي قاعة مستطيلة الشكل، فيها ثلاثة برك ماء رخامية ومسقوفة بثلاث قباب يستريح فيها المستحمّ. الوسطاني، قاعة وسطية كبيرة على جانبيها قاعتان أصغر منها، وهي تحتوي على مقاعد يستريح فيها المستحم في جو متوسط الحرارة. وقاعة الاستحمام، وهي باحة واسعة فيها ثلاثة مراكز يتوسطها مقعد حجري ورخامي يسمى المصطبة، وهو أكثر الأمكنة حرارة لوجوده فوق خزان توزيع المياه الساخنة. وجميع هذه الغرف مسقوفة بقباب في ثقوبها وضعت زجاجات ملونة تعكس النور إلى داخل المبنى لتجعل إنارته ملونة، وتضفي عليه منظراً رائعاً.

الفصل السابع

البترون

تبقى البترون رغم غناها بالآثار، من المعالم التي ما زال الغموض يكتنفها. وربما يعود ذلك إلى عدم القيام، حتى يومنا هذا، بأي محاولة للتنقيب عن آثارها ومعالمها التي ذكرها عدد من المستشرقين والعلماء في أسفارهم ورحلاتهم. وكان التنقيب الوحيد أو بالأحرى الإسبار الوحيد الذي قامت به المديريّة العامة للآثار عام ١٩٧٧ عندما كان عمال المديريّة يرمّمون كنيسة مار جرجس للروم الأرثوذكس والسوق التجاري، فعثر أحدهم في أرض الآنسة سارة عوض على تمثال من الرخام الأبيض الإيطالي المنشأ يرمز إلى أحد أعيان الفترة الأخيرة من العصر الروماني يحمل بيده لفافة من الورق وكأنها إيراوة امبراطوريّة، كما عُثر على تمثال آخر يمثل ولداً يمتطي سمكة دلفين، فاستدعي على الأثر المسؤولون في المديريّة، وبدأوا التنقيب لتظهر آثار رومانيّة وبيزنطيّة على عمق خمسة أمتار، إلا أن الظروف الأمنيّة في تلك الفترة (الحرب اللبنانيّة) حالت دون إكمال الحفريات.

ورد اسم البترون لأول مرة في ثلاثة مقاطع Bat - Rouna في رسائل تلّ العمارنة التي تعود للنصف الأول من القرن الرابع عشر قبل الميلاد (ما بين سنة ١٣٧٠ وسنة ١٣٥٤) ومعنى الاسم كما هو وارد لا يزال غامضاً. ويقول الدكتور أنيس فريحة أن الاسم مشتق من جذور سامية مشتركة B. T. R ومعناه الصخر الشاهق، أما الأبوان يوسف حبيقة وإسحق أرملي فيعتبران أن اسم البترون له معنى آخر Bet Troûna، أي: محلة المقدم أو الرئيس. والبرهان الواضح على تفسير هذه التسمية تأكيد الأستاذ جوزف مرشاق (ابن البترون) على وجود مكان يسمى بـ «مقعد المير»، أي مكان الرئيس على شاطىء البترون.

وعندما خضعت فينيقيا للاسكندر المقدوني أطلق الإغريق على هذه المدينة اسم بوتريس، ويعني عنقود العنب بسبب غناها بكروم العنب. أما الصليبيّون فسموها Le Boutron.

تعتبر هذه المدينة من أغنى الأماكن الأثرية في لبنان والمنطقة، خصوصاً بالأدوات الصوانية. إذ أن عدداً كبيراً من العلماء وجد فيها سلسلة من المغاور أشهرها عند مصب نهر الجوز، وهي تحتوي على أدوات صنعها الإنسان منذ أكثر من ٣٠٠ ألف سنة. وهذا ما يؤكده متحف الأدوات الصوانية والحجرية الذي كان موجوداً في مدرسة الأخوة المريميين في البترون.

ومن هذه الأدوات نذكر الفؤوس الصوانيّة بمختلف أشكالها وأحجامها وعصورها، المحكات، المعاول، الأزاميل، السكاكين، رؤوس السهام والنبال، أدوات للزراعة، فضلاً عن المطاحن الحجريّة اليدويّة والشفر والمخارز. ويعد منزل الأستاذ مرشاق «بيتاً» لبعض هذه الأدوات القيمة.

ووجد من آثار إنسان العصر الحجري الحديث أختام فخاريّة مشويّة ومجفّفة بالشمس، تعتبر نوعاً من رابط ما بين عصر التاريخ المدون وعصر ما قبل التاريخ؛ فبالإضافة إلى اكتشاف بعض الأدوات التي استعملها الإنسان من حجر الأبسيديان Obsidiène البركاني الذي كان الفينيقي يشتريه من تركيا ليتاجر به.

وفي العصر الذهبي الفينيقي وحدها رسائل تلّ العمارنة أشارت إلى ازدهار البترون، وكذلك تمثال من الفخار اكتشف سنة ١٩٨٩، ويعتقد أنّه يعود لعام ٢١٠٠ قبل الميلاد، فيما يدخر شاطىء البترون وبأعماق متفاوتة عدداً غير قليل من الأواني الفخارية التي يكتشفها الصياديون من وقت لآخر.

أما الفترة التي بدأت تزدهر فيها البترون بشكل فعال فهي في العصر الروماني، أي ابتداءً من سنة ٦٤ قبل الميلاد؛ إذ منحها يوليوس قيصر الاستقلال سنة ٤٧ قبل الميلاد وحق صك العملة ابتداءً من سنة ٣١ ق. م. وعرفت في هذه الفترة ازدهاراً على الصعيدين الفني والأدبي. والدليل على ذلك المدرج الروماني الذي يقع في حي مراح الشيخ. كما اشتهرت بخمورها حتى عصر النهضة في أوروبا. وفي العهد الصليبي ترممت قلعتها الفينيقيّة وأنشئت فيها وبجوارها كنائس عديدة، منها دير سان سابور وكنيسة مار يعقوب. ويبقى العصر الذهبي للمتصرفيّة العصر الواضح بالنسبة لتاريخ البترون عرفت خلاله ازدهاراً على كل الأصعدة، دينياً

وفكرياً وفنياً وعمرانياً واقتصادياً. فكان يحتضن عدداً كبيراً من المكاتب الحكوميّة والمطاحن والمعاصر والمتاجر والخانات والفنادق والمدارس والكنائس والحارات الفخمة ذات الرسوم الجدرانيّة من أعمال الفنان يوسف الناكوزي، بينما كان ميناؤها يصدر إنتاجها الزراعي والصناعي.

الآثار الفينيقيّة

● يحتضن شاطىء البترون أهم آثار الفينيقيّين في هذه المدينة، وهي ما تزال ظاهرة ليومنا هذا، وأبرزها السور الفينيقي الفريد من نوعه، ويتكوّن من الصخر الرملي القاسي الصلب المنتشر في البترون، ومنه بنى الأهالي منازلهم والخانات والقلاع والأديرة وغيرها.

وإذا كان سور الصين البناء الوحيد الذي نراه بالعين المجردة من القمر حيث لا يضاهيه بفخامته أي بناء آخر على سطح الأرض، فسور البترون يمتاز بغرابته، فهو من عمل الطبيعة والإنسان معاً. وعمل الطبيعة فيه لا يقل عمره عن المليون سنة، بينما عمل الإنسان يعود لآلاف السنين عندما سكن إلى جانبه ووجد فيه مادة أساسية للبناء. يبلغ طوله نحو ٤٠٠ متر ويغلب عليه اللون البني الغامق، لون الرمل الذي ترطب بمياه وحشائش وحيوانات البحر. إلاَّ أنه معرّض اليوم للاندثار بعدما اقتلعت عاصفة شتاء عام ١٩٦٨ جزءاً من وسطه الشرقي ما أضعف من إمكانيّة مقاومته لعوامل الطبيعة ويعتبر بعض علماء الآثار ان هذا السور كان مقلعا للحجارة في العهد الروماني ومنه بنى أهالي البترون منازلهم.

● **مقعد المير**: يقع جنوب شرق السور ويعتقد أن من هذا المقعد أخذت البترون إسمها، وهو صخرة محفورة على شكل نبتة الفطر أو الملفوفة، حفر في جهتها الجنوبيّة الغربية باب يفتح على درج يؤدي إلى سطح الصخرة. ويعتقد أن مقعد المير هو المكان الذي كان يجلس فيه حاكم المدينة أيام الفينيقيّين، والتسمية الحالية هي عربية بينما الأثر فينيقي، حسبما تدل هندسته.

● **بركة بنت الملك**: بركة صغيرة منحوتة في الصخر على شاطىء البحر

غرب مقعد المير. ويقال أن ابنة ملك فينيقي كانت تستعملها للاستحمام.

● **القلعة البحرية**: بناها الفينيقيّون أيام ملك صور إيتو بعل في القرن التاسع قبل الميلاد لصدّ هجمات الأشوريّين الذين ظهروا كدولة قوية انطلاقاً من بلاد ما بين النهرين وسيطروا على بلاد آرام وهددوا المدن الفينيقيّة. ويعرب الأستاذ مرشاق عن اعتقاده بأن القلعة ترمّمت بعد زلزال أصاب المنطقة عام ٥٥١ بعد الميلاد وهدّم القلعة، وتثبت الأحجار مختلفة الأحجام والأشكال والمكونة منها القلعة حالياً صحة كلامه، ونلاحظ في عمارتها وجود أعمدة عدة من الغرانيت الأخضر. هذه القلعة التي عايشت عهوداً وتحوّلت لمعصرة زيتون وهي مهجورة اليوم.

* * *

ومن آثار الفينيقيّين أيضاً قبور ونواويس قديمة لا يقل عمرها عن ١٣٠٠ سنة نراها في أنحاء المدينة، خصوصاً أمام بعض المجمعات السياحيّة وكاتدرائيّة مار اسطفان وبالقرب من جامع البترون عدا ما نقل منها إلى خارج أو حطم وأزيلت معالمه. هذه النواويس من الأحجار الرمليّة التي أخذت من جانب السور الفينيقي. ووجد عام ١٩٧٧ ناووس من الرخام الأبيض بشري الشكل في بيت الدكتور جورج ديبو من دون غطائه، ويعتقد بعض العلماء أن هذا الناووس يحضن ملك صور إيتو بعل وأن غطاءه احتجزته الدولة التركية أثناء الحرب العالميّة الأولى ونقلته إلى الأستانة.

الآثار الرومانيّة

جعل الرومان من البترون إثر استيلائهم على المنطقة، قلعة منيعة وعرفت في أيامهم حالة من الازدهار والعمران، فبنوا فيها مدينة عالية Acropole للإشراف على المدينة الفينيقيّة المحاذية للبحر. وهذا الأكروبول يعرف اليوم بحي مراح الشيخ، إذ لا يزال المسرح الروماني الفريد من نوعه ينبض بالحياة في أرجائه. ويعود بناؤه للقرن الثاني للميلاد، وهو محفور في الصخر بشكل نصف دائري. تظهر فيه اليوم إحدى عشرة درجة تضيق كلما اتجهنا من الشرق إلى الغرب. وكانت تزين أسفله حيث تمثل الملهاة أو المأساة ثلاثة أحجار رخاميّة ضخمة منقوشة بأشكال شبيهة بأحجار بعلبك. وهي موجودة اليوم في حديقة منزل النائب

السابق الدكتور فيليب الخازن.

ويلاحظ أن هذا المسرح يختفي القسم الأعلى منه تحت المنازل التي بنيت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ويشبه العالم أرنست رينان هذا المسرح بمسرح مدينة أورنج Orange في جنوب شرق فرنسا. يقع تحت هذا المسرح سرداب مقفل يعتقد أنه يضمّ الحمامات الرومانية وآباراً للمياه. ويشير بعض العلماء إلى أن المياه كانت تصل للحمامات من نهر الجوز مروراً بقلعة المسيلحة.

والذي يدلّ على مقام البترون سابقاً المسكوكات النقدية التي ضربها أهلها أيام استقلالهم وأشارت إلى امتياز المدينة بتاريخ خاص فيها، مثلها مثل بقية مدن الساحل. وقسّم الدكتور جول روڤييه النقود المضروبة في مقالته عن «تاريخ مسكوكات البترون» إلى قسمين رئيسيّين، الأول: نقود البترون في عصرها الاستقلالي. وكانت تتميز بوجود رسم المعبودة Tyché إلهة الثروة والحظ وبوجود مقوصة سفينة. والثاني: النقود الامبراطوريّة وتتميز برسم الأباطرة من نساء ورجال وعشتروت وديونيزوس أو باخوس إله الخمر.

وبدوره قسّم الأستاذ مرشاق المسكوكات النقديّة إلى مجموعتين، الأولى: موجودة في متحف اللوفر وكتب عنها كل من جول روڤييه Rouvier، جان بابولون وهنري سيريغ Seyrig. والثانية: تحتفظ بها أرملة ميشال شيحا.

ومن الآثار الرومانيّة أيضاً القناة الرومانيّة التي كانت تجرّ مياه نهر الجوز ابتداء من شلالات كفرحلدا حتى البترون بطول ٢٨ كلم. ولها آثار باقية ليومنا إلى جانب مطحنة الحمام وقلعة المسيلحة. تتكون هذه القناة من الكلس والرمل الرفيع وحصى وزيت زيتون.

الكنائس

بانتشار المسيحيّة أنشئت كنائس عديدة في البترون أهمها كنيسة سيّدة البحر للأرثوذكس، يعتقد أنها بيزنطيّة مبنية على معبد وثني قديم. تبلغ سماكة جدرانها نحو متر ونصف المتر وهي ذات عقد سريري يتجه مذبحها نحو الشرق ويفصل بين

المذبح والمؤمنين أيقونوستاز من الرخام الأبيض.

● **كنيسة مار جرجس للروم الأرثوذكس**: تقع وسط البلدة القديمة قرب الميناء. بناها المعلم ديبو في البترون عام ١٨٦٧ من الحجر الرملي على الطراز البيزنطي. يساوي طولها ارتفاعها بالأمتار تماماً، ويبلغ ١٧ متراً. وهي ذات قبة مستديرة يطلق عليها أهالي المدينة «آيا صوفيا» ومعناها الحكمة الإلٰهية تشبّهاً بالكنيسة الرئيسيّة في اسطنبول.

● **كنيسة مار اسطفانوس**: تهدمت عام ١٨٩٧ وبنيت مكانها كاتدرائيّة مار اسطفان الحالية. يبلغ طولها ٤٠ متراً وعرضها ٢٠ متراً وارتفاعها ١٢ متراً. أما القبة فيبلغ طولها ١٦ متراً. تمتاز هذه الكنيسة بحجرها العقد وحناياها المرتكزة على أعمدة من الرخام المطعّمة بأسماك متحجّرة. وقد جلبت هذه الأعمدة من قلعة بيت مري.

● **كنيسة مار يعقوب**: تقع على مقربة من البترون شمال نهر الجوز، وهي كنيسة قديمة أنشئت على أنقاض هيكل قديم كما دلّت الحجارة المرميّة حولها المنقوشة والمزخرفة والتي كان على بعضها كتابات يونانيّة طمست اليوم. هذه الكنيسة لم يبق منها إلا جدار واحد قديم يعود للعهد الصليبي، مع أن أساساتها القديمة لا تزال ظاهرة.

● **الكنيسة الصليبيّة**: وعلى مسافة بضعة أمتار من جهة الشمال الغربي لكنيسة مار يعقوب، تقع الكنيسة الصليبيّة المعروفة باسم طور طابور. ويقول الأب هنري لامنس اليسبوعي أن اسمها مأخوذ من كلمتين فرنسيتين معناهما الطور المقدس Saint Thabor. أما سبب إطلاق هذا الاسم على هذه الكنيسة فيعود إلى أن هذه الأخيرة كانت ملحقة بالدير الذي شيده الصليبيون على جبل الطور، وكانت له أوقاف عديدة وأملاك واسعة، منها موجود في الكورة وقرب طرابلس.

يعود عمر هذه الكنيسة إلى منتصف القرن الثاني عشر وما تزال بعض الزخرفة موجودة على بعض جدرانها. وهناك درج حجري لولبي يؤدي إلى سطحها. وهي كانت أكبر بكثير كما دلّت الأساسات إلاّ أن أهميتها بالغة لأنها كانت مثالاً لهندسة

الكنائس. ويحتفل أهالي البترون حتى اليوم بجوارها بعيد الرب كل عام في ٦ آب.

ونذكر من الآثار العربيّة أحجار منحوتة ببعض الرموز مبعثرة وموزعة على أبنية البلدة القديمة. ومن الآثار العثمانيّة سراي الحكومي الذي أنشىء عام ١٨٩٧ وحافظ على هويته حتى بعد إعادة ترميمه، وجسر حجري يقع إلى جانب قلعة المسيلحة.

أما الآثار الحديثة فمنها أسواق البلدة القديمة المرصوفة بالحجر البحري ومجموعة من أبنية القرميد، وخانات ومدارس.

قلعة المسيلحة

من البترون إلى طرابلس هناك طريقان: الأول ساحلي، والثاني جبلي، ومن يتوجه عن طريق الجبل المحاذي لوادي نهر الجوز يصل إلى حصن منيع يتميز بموقعه الاستراتيجي فوق صخرة منتصبة على الوادي عمودياً تشرف على الجزء الأكثر خطورة من الطريق الذي يصل البترون بطرابلس. هذا الحصن هو قلعة المسيلحة التي تعتبر من أهم أطلال البترون وألغازها وهي لا تزال منتصبة رغم عوامل الطبيعة وحضارة الحديد والإسمنت.

جعل شكل القلعة على شكل الصخرة التي تقع عليها حيث اقترنت جدرانها بدائرة الصخرة. وأنشئت هذه القلعة بأحجار رملية نقلت من الجبل القريب منها وبأحجار ضخمة كلسية نقلت من الصخور القائمة عليها القلعة.

تتراوح سماكة جدرانها بين المتر والمترين وهي مبنيّة بأحجار صغيرة لا يتعدى طولها الـ ٤٠ سنتمراً وعلوّها الـ ٣٠ سنتمراً. ويعتقد الدكتور حسان سلامة سركيس الأستاذ في علم الآثار أنه يبدو لنا أن القلعة حسب حجمها مؤلفة من قسمين غير منفصلين يقعان إلى جانب بعضهما البعض. الأول: القسم الشرقي الذي أنشىء في البدء. والثاني: القسم الغربي الذي أنشىء بعد فترة زمنية إلى جانب القسم الأول دون أن يشكل فرقاً في البناء بل شكّلا وحدة عضوية متجانسة ومتناسقة.

نصل إلى القلعة عبر ممر ضيق وأدراج محفورة في الصخر أو بالأحرى مبنية على الضفة الشماليّة للصخرة التي تحمل القلعة. تؤدي هذه الأدراج التي تحيط بها تينة قديمة وطفيليات نباتيّة إلى مصطبة صغيرة في آخرها باب تعلوه قنطرة منخفضة تتخلّلها فجوات لصب السوائل الحارقة على المهاجمين، ويقوم بتموينها مقذف يميل نحو الباب، ويفتح على غرفة صغيرة فوق الطابق الأرضي ليكون الباب بذلك محمياً من جهة المقذف الذي يعلوه، ومن جهة ثانية بمقذف موجود في الفجوة بين قسمي القلعة الشرقي والغربي والذي يسهّل مراقبة الطريق المؤدي إلى القلعة.

يفتح باب القلعة على رواق معقود يكشف على ساحة ضيقة مثلثة الشكل في آخرها ممشى عرضه متر يؤدي إلى صالة الرماية ومقاذف البرج الغربي للقلعة. وبواسطة درجات عدة في اتجاه الشرق، نصل إلى الطابق الثاني الذي يحتوي بدوره على ممشى مطابقة هندسته للطابق السفلي إنما أضيق منه. وإذا اتجهنا نحو الغرب نصل إلى سطح القلعة.

وعلى الجهة الجنوبيّة من الساحة المثلّثة هناك ممشى معقود مركز على غرف معقودة تحت الأرض كانت تستعمل كمستودعات أو خزانات لتوزيع المياه على الغرف. وما زالت آثار قنوات المياه المحفورة في الصخر ظاهرة.

هذا البناء بشكله البسيط يحتوي في زاويته الجنوبيّة الشرقيّة على محراب موجه صوب القبلة، وهو يدلّ على أن القلعة كانت تحتوي على غرفة خاصة للصلاة.

أما القسم الشرقي للقلعة فهو أعلى من القسم الغربي وأكثر تحصيناً ويؤلف مجموعة متماسكة. يؤدي مدخل هذا القسم إلى رواق يؤدي بدوره إلى ثلاث غرف معقودة وإلى البرج الشرقي وإلى درج يصعد بنا إلى غرف الطابق الأول الذي أزيل سقفه. وتعتبر هذه الغرف القسم الأهم من القلعة حيث كانت مجهزة تجهيزاً كاملاً للدفاع عن الموقع وعن مدخل الوادي بفضل تحويلها إلى غرف للرماية وإطلاق المقاذف التي تخترق الجدران.

على الرغم من الدراسات العديدة التي أجريت على القلعة بقي تاريخ بنائها

وأخبارها مجهولة وغير محددة، مع أنها كانت تعتبر في العصور الغابرة بفضل موقعها سداً للمر الجبلي وبالتالي تتحكم بمدخل المعبر الذي يمتد من البترون إلى طرابلس.

ويرى الدكتور سركيس أن الطريقة الوحيدة لحل هذا اللغز هي في دراسة طريقة بناء أحجار قناطر العقد وهي متوفرة في لبنان. وبسبب الافتقار للمعلومات الدقيقة اختلف العلماء حول تاريخ بنائها؛ فالأب هنري لامنس اليسوعي يشير في كتابه «تسريح الأبصار في ما يحتوي لبنان من آثار» إلى أن القدماء من الأجيال المنصرمة شيدوا هذه القلعة وجعلوها رصداً لحركات العدو. ويرجح أن أبنية المسيلحة الحالية لا تتجاوز القرون المتوسطة ولا يستبعد بالتالي أن يكون الصليبيّون هم الذين رمّموها بعد خرابها هذا إذا لم يشيدوها بأنفسهم أو أن تكون من عهد الفاطميّين أو عائلة «بنو عمّار».

وكان ڤان برخم Van Berchem أول من كتب عن القلعة في كتاب صدر عام ١٩١٤ ورجّح بعد تردده بين أصلها الغربي أو الإفرنجي أن تكون شيدت في القرن الثالث عشر.

أما المراجع الوحيدة التي تذكر هذه القلعة وتنسب تاريخاً محدداً لبنائها، فهي كتاب «رحلة المسافر» للكاتب الفرنسي جان دو لاروك عام ١٧٢٢، وكتاب المؤرخ الماروني الأب منصور الحطوني عام ١٨٨٤.

ويؤكد دو لاروك De La Roque أنه سمع من الأهالي خلال رحلته إلى المنطقة ومروره بالمسيلحة أواخر سنة ١٦٨٩: أن الأمير فخر الدين بنى هذه القلعة. ويؤكد الدكتور سركيس وجوب الأخذ بهذه الشهادة لأنها شهادة بالعين المجردة حيث جاءت بعد ٥٠ عاماً من موت الأمير.

وكما نسب دو لاروك البناء للأمير فخر الدين كذلك فعل الأب حطوني الذي أفاد في كتابه بأن الأمير فخر الدين توجه عام ١٦٢٤ إلى حلب وشرع في بناء قلعتين على تخوم حكمه، الأولى شمال قلعة الشماميس تجاه حلب، والثانية فوق أنطاكية. وأمر بترميم قلعة بعلبك وبناء قلعة قب الياس ليطلب بعد ذلك من الشيخ

أبي نادر الخازن بناء قلعة المسيلحة شمال البترون.

ويستخلص الدكتور سركيس بعد كل هذه الدراسات حول القلعة المعطيات التالية:

أولاً: إن قلعة المسيلحة لم ترمّم إنما أنشئت بأمر من الأمير فخر الدين عام ١٦٢٤.

ثانياً: هذا التاريخ (١٦٢٤) وتوكيل الشيخ الخازن ببناء القلعة جاءا من مصادر موثوقة حفظتها عائلة الخازن وتأكد منها الأب الحطوني قبل كتابة ما ورد.

ثالثاً: إن بناء القلعة عام ١٦٢٤ نقلها شهود عيان للرحالة دو لاروك. ويعتبر أنه في حال كانت هذه التحصينات أقيمت على هذا الصخر أيام البيزنطيّين مروراً بعهد بني عمّار والصليبيّين، واندثرت مع الزمن، قد يكون الأمير فخر الدين وجد نفسه مضطرّاً لتشييد بناء جديد عام ١٦٢٤ مستعملاً بقايا من البناء القديم لتشييد هذه القلعة. إلا أن السؤال حول أيّ بقايا قد تكون استعملت يبقى لغزاً طالما بقي الجواب عليه مجهولاً.

الفصل الثامن

فقرا

من فقرا، تلك البلدة الكسروانيّة المرتفعة عن سطح البحر ١٦٠٠ متر والتي تكاد مرتفعاتها تلامس السماء، تشعر وكأنك قريب من عرش السماء تناجي الرب الإلٰه. هذه الحقيقة لم تغب عن بال الأقدمين في العصور الغابرة، فعمدوا إلى بناء معبد للآلهة لتكريمهم في تلك المنطقة، هو اليوم ما يعرف بقلعة فقرا الأثرية.

يتخلل الطريق المؤدي إلى فقرا منطقة جبليّة ذات تضاريس غريبة تنتشر في الحقول والحدائق: صخور كلسيّة برتها عوامل الطبيعة حتى كادت تشبه الفطر الضخم أو قطع الحلوى، فيما تنتشر صخور أخرى كالأمواج المتدفقة. من هنا يتدفق نهر اللبن بعد جولته الطويلة تحت جبل صنين، ويدخل تحت جسر طبيعي من الصخور يبلغ ارتفاعه ٣٨ متراً بطول ٦٥ متراً وعرض ٤٥ متراً، أما سماكته فتقارب العشرة أمتار.

قلعة فقرا التي تفوق مساحتها كل آثار لبنان على تلة شمالي شرق بلدة كفرذبيان، بنيت في القرن الأول الميلادي، في عهد الامبراطور الروماني كلاوديوس الذي اعتمد سياسة منفتحة ومتحررة تجاه المحافظات الرومانية في آسيا، فاكتسب ثقة الشعب حتى في المناطق البعيدة مثل فقرا، حيث ارتبط اسمه باسم الإلٰه الأكبر المحلي بعل غلاسوس. وعند اعتناق الرومانيّين الديانة المسيحيّة، واعتماد قسطنطين المسيحيّة كدين للدولة في القرن الرابع ميلادي اتخذت إجراءات شديدة لمحاربة الوثنيّة، وعندما اعتلى تيودوسيوس عرش روما سنة ٣٧٩، أقفلت غالبية المعابد، وفي هذه الفترة تهدمت معابد ومذابح فقرا وشيدت مكانها كاتدرائية مسيحيّة وإلى جانبها «جرن» للمعموديّة.

اهتم العديد من الأثريين بآثار فقرا، فرسم ليون دو لابورد عام ١٨٣٤ الآثارات الموجودة داخل القلعة فيما كلف امبراطور فرنسا نابوليون الثالث الأثري أرنست رينان بوضع دراسة للأماكن التاريخيّة في لبنان، فرأى رينان أن فقرا كانت

مركزاً دينياً وتجارياً هاماً وبقايا الآثارات الموجودة فيها هي الأوسع في جبل لبنان، مشيراً إلى أن المذابح كانت تبنى في مكان مرتفع ليكون الإنسان قريباً من ربه وعلى اتصال به.

وتقسم هذه القلعة إلى أربعة أقسام:

١ ــ الهيكل أو المعبد

يقع وسط دهاليز من الصخور وجزء منه محفور في الصخر، طوله ٣٤ متراً وعرضه ١٤ متراً، وحجارة البناء متوسطة الكبر. مدخله الرئيسي مؤلف من ستة أعمدة وركائز ضخمة من الصخر الكلسي الرمادي التي ترتفع بعظمة لجهة شروق الشمس. وأمام الهيكل ساحة رحبة طولها ٣٨ متراً وعرضها ٣٠ متراً.

وينقسم المعبد في وسطه بممر يستطيع المؤمنون من خلاله عبور السور المقدس خلال التطوافات أو الزياحات. ولا بدّ من أن يكون المعبد مبنياً لإلهة أنثى لأن الأبنية المشادة في العهد الروماني وفق المساحة ١٢/١١ كانت مكرّسة لعبادة الإلهة الأنثى. ولا نعرف اسم هذه الإلهة لأنه لا توجد أي كتابة، أما الأسماء المحفورة فوق الباب فهي أسماء وجهاء فقرا الذين مولوا بناء المعبد.

٢ ــ البرج

يقع في شمال الهيكل وهو مربع الشكل يبلغ ارتفاعه نحو ١٥ متراً، كان في الماضي متوجاً بهرم، توجد في داخله ممرات ضيقة مظلمة. وفي الوسط غرفة صغيرة محاطة بجدران «سميكة» كانت تستعمل لإيداع كنز المعبد والهدايا الثمينة. ومن المرجح أن هذه الغرفة كان يمرّ بها درج يستعين به الكهنة للوصول إلى السطح الأعلى حيث تقام وتقدم الضحايا. وعلى جوانب هذا البرج كتابتان يونانيّتان.

الأولى تروي قصة هذا البرج الذي بني على شرف الامبراطور كلاوديوس في العام ٤٣ للميلاد، والثانية تشير إلى أن مشيد هذا الأثر هو أحد كهنة الهيكل الذي بناه على نفقة خزنة الإلٰه الأكبر.

هذا البرج الضخم تحوّل إلى قلعة بحرية في عهد الصليبيّين الذين أزالوا تاجه الرومي وجعلوا مكانه حصناً لرمي النبال.

٣ ــ البناية المربّعة

وبإزاء الهيكل المذكور بقايا من بناية مربعة تظهر من شكلها أنها كانت مشهداً أو مقبرة. وهذه البناية محكَمة العمل وحجارتها ضخمة.

٤ ــ البناء المستطيل

وعلى مسافة ثلاثين متراً من الهيكل من جهة الجنوب أثر آخر لم تعرف الغاية من بنائه. وهو على شكل مستطيل ذي جوانب متوازية ويقسم إلى قسمين كبيرين لهما باب يصل بينهما من داخلهما. وقد يكون البناء كنيسة أو هيكلاً كما ذكر أرنست رينان في كتابه «بعثة فينيقيا». ولكن ذلك أمر لا يمكن الجزم به؛ فهندسة هذا البناء تختلف عن هندسة الهياكل القديمة والكنائس وذلك بالإضافة إلى أن أبواب الكنائس كانت توجه في القرون الماضية إلى الغرب بخلاف هذا البناء.

ويذهب البعض إلى التأكيد على كون هذا البناء هيكلاً ينتصب فيه مذبح لعشتروت، وهو قريب الشبه من مذبح فينوس في بعلبك، ولكنه غير مثمن الأضلاع، ويتكوّن من ١٦ عموداً صغيراً، كل أربعة أعمدة في ضلع من أضلع المذبح الأربعة. وقد محيت كل الرسوم والنقوش التي كانت خلف هذه الأعمدة.

وفي النهاية، لا يمكننا إلاّ القول أن القلعة ليست الشاهد الوحيد على الزمن الغابر، بل أطلال وبيوت ومعاصر وقبور فقرا المنحوتة في الصخر، تشهد أيضاً على أن هذا المكان كان عامراً في العصور الخالية وأن قوماً حضاريين كانوا يقطنون بجوار الهيكل.

الفصل التاسع

بيت مري

إلى بيت مري «بيروت العتيقة» كان يتقاطر أهل مدينة بيروت في وقت اشتداد القيظ عند الساحل، وفي هذه البقعة التي تقع على القمة الشرقية من العاصمة شيد الرومان في أيام القيصر كلاوديوس (سنة ٥٥) هياكل عديدة وحمامات وملاعب كثيرة. وقد تكرر اسم هيكل بيروت في بيت مري الذي يسمى بدير القلعة في وثائق عديدة، منها وثيقة مؤرخة سنة ١٧٤٨م، وهي متعلقة بأطلال مار يوحنا وفيها أن اسم هذا المقام هو «بيروت العتيقة».

بيت مري أصل اسمها سرياني Bet Mâré، ويعني مكان السادات والأرباب أو بيت سيدي ومولاي، إشارة إلى الإله الفينيقي المشهور مرقود الذي تركزت عبادته في بيت مري في دير القلعة. وقد كان إله الرقص والطرب والغناء. وقد يكون في عيد ساسين أثر من آثار مراسم الإله مرقود. وفي لبنان قرى عديدة تبدأ أسماؤها بلفظة «بيت» أو «بت» وتعني مقراً أو بيتاً.

أما إطلاق اسم دير القلعة على المكان فليس هناك من أثر يفيدنا بهذا الشأن إلا الاعتقاد أنه كانت هناك قلعة قائمة منذ قرون، واسمه الحالي أطلقه العرب على آثار أخرى في أنحاء سورية؛ إذ أنهم يدعون بالقلعة كل بناء متسع الأرجاء واثق الأركان محكم البنيان. ويؤكد الباحثون أن دير القلعة كان يقوم لبيروت مقام هيكل بيتوكيكي «Bœtocece» (حصن سلمان) لجزيرة أرواد. وكما أن هذين المعبدين سبقا النصرانية، فكذلك تقدمها معبد دير القلعة. وما يؤكد رأينا اسم الإله الذي عبده الرومان في هذا الهيكل فكانوا يدعونه بعل مرقد Baal Marcod وهو بلا شك اسم فينيقي.

بدأ العثور على آثار دير القلعة منذ أن انتقلت ملكية القلعة والأرض المحيطة بها، إلى الرهبانية الانطونية عام ١٧٤٨. وكان أول من درس هذه الآثار العالمان ودنغتون Waddington الإنكليزي وكليرمان غانو الفرنسي. وفي مكتبة أكاديمية

المنقوشات في باريس تقارير عنها محررة عام ١٨٩٨. وفي سنة ١٨٩٩ وقبلها زار الأب هنري لامنس اليسوعي هذه الآثار وكتب عنها في كتابه «تسريح الأبصار في ما يحتوي لبنان من الآثار» كما أجرى الأب رونزفال Ronzeval أبحاثاً في المكان قبل أن تضع مديرية الآثار يدها على المكان وتصنفه من الأماكن الأثرية المهمة في لبنان.

ومعظم الكتابات التي عثر عليها منقوشة على أنصاب توجت بالأحرف الآتية: «J.O.M.B.» وهي تلخيص لكلمات Jovi Ophimo Maximo Baal) Marcode). وتعني بالعربية: «جوبيتر الصالح العظيم بعل مرقد».

وعثر أيضاً على الكلمات نفسها باليونانية Kurio Gemato Baal» marcodi» وفي هذا دليل واضح عى عظمة هذا الإله الذي انتشرت عبادته في الساحل كله.

وإلى الآن ما تزال النقوش والتماثيل التي عثر عليها موجودة في القبو الكبير الذي تحول اليوم إلى متحف لدير مار يوحنا. ويوجد على حائط كنيسة الدير التي بناها الرهبان الأنطونيون تمثال أسد مواجه لتمثال أسد آخر، وعلى حائط الدير تمثال امرأة على رأسها تاج. وهذه التماثيل وجدت بين الأحجار المهدمة.

ومن عادات الفينيقيين أنهم يعتبرون كاليونان القمم العالية مقراً لآلهتهم لاعتقادهم أن الآلهة تهبط على الأماكن المرتفعة. لذلك أقاموا على قمة بيت مري، عند دير القلعة، معبداً للإله مرقد اعتبر الأول في هذه البلاد على القمة المطلة على الساحل كله. ولا تزال المعابد المسيحية تشاد حتى اليوم على القمم البارزة، وخصوصاً الأديرة المسيحية.

ولما استولى الرومان على المنطقة في منتصف القرن الأول قبل الميلاد، اتخذوا الآلهة المحلية آلهة لهم إرضاء لسكان البلاد التي احتلوها. واعتبروا الإله «بعل مرقد» بمصاف آلهتهم وكمعبودهم الكبير «جوبيتر». وكانت المرتبة الثانية بعد «بعل مرقد» لإلهتهم «جونو» التي اعتبروا أنها هي نفسها «عشتروت» فشيدوا المعبد الكبير على اسم «بعل مرقد ـ جوبيتر» ومعبداً صغيراً على اسم «جونو ـ عشتروت»

ما تزال بقاياهما ظاهرة على قمة بيت مري.

معبد «بعل مرقد»

يشتهر باسم «دير القلعة» ويقوم على جانب منه دير مار يوحنا. ويعود تاريخ هذا المعبد الروماني بأحجاره وأعمدته الضخمة إلى أوائل القرن الثاني الميلادي وهو من أهم الآثار التي اكتشفت في دير القلعة. ولا يزال جدار المعبد إلى الآن بحالة جيدة: أحجار ضخمة متساوية الحجم ترتكز على أساسات صخرية متينة. هذه الأحجار استعملت في تثبيتها طريقة الحفر والتنزيل بحيث ظلت ثابتة متماسكة رغم الهزات والسنين التي مرت عليها.

وعلى جانب من جدار المعبد شيّد الرهبان الأنطونيون كنيسة مار يوحنا التي تقوم أمامها بقايا القلعة الكبيرة المحيطة بالمعبد، في تيجان وقواعد وأجزاء أعمدة ومصطبة صخرية. وقد سلم من الزلازل عمودان كبيران ما يزالان قائمين أمام بوابة الكنيسة من الجهة الغربية، وعمود ثالث بني حوله جدار الدير الذي لا يرى منه سوى وجهه الظاهر.

على هذه الأعمدة قام هيكل «بيريت» أحد الآلهة الفينيقيين والذي سميت بيروت باسمه. وقيل إن ارتفاع كل عمود كان ١٥ متراً تقريباً، ويتألف من قطعتين أو ثلاث. ويعتقد أنه كان هناك نفق في داخل القلعة يؤدي إلى نبع الديشونية أو نبع «القصير» لاستجلاب المياه وقت الحروب.

مرقد إلٰه الرقص

يؤخذ من إحدى الكتابات المكتشفة في دير القلعة أن إلهاً مجهولاً يدعى أرمثينوس كان يحض المتعبدين له على أن ينصبوا المذابح لبعل مرقد. ومعنى اسم هذا الإله وسبب تسميته بمرقد يستخلص من أصل اسمه باللغة العبرانية، وهي فرع من الفينيقية. فإن «مرقد» مصدر يشتق من فعل عبراني معناه رقص، وعليه يكون بعل مرقد إله الرقص والبسط، ولا يستبعد العلماء أن يكون هذا الإله هو إله

الرقص نفسه المعروف عند المصريين باسم «بيس» Bés وأن يكون المصريون اتخذوه من الفينيقيين. من ألقابه التي دعي بها في الكتابات أنه ملك المآدب والولائم، ولعلّ هذا الوصف دليل على أن قدماء الفينيقيين كانوا يجتمعون بقرب هذا الهيكل لتوفير أسباب الهناء كما يصنع اليوم في تلك النواحي في عيد مار ساسين، إذ يتحوّل العيد إلى مهرجان وطني. ويحذو الجموع دون أن يشعروا حذو أجدادهم. وكان سكان بيروت في عهودهم الغابرة يقيمون مهرجاناً كبيراً في موسم القطاف في شهر آب، إذ يصعدون إلى كروم بيت مري في مواكب، حتى إذا وصلوا إلى هذه القمة يشرعون في قطف العنب وهم ينشدون ويقيمون حلقات الرقص، حيث الرقص يعني صلاة وابتهالاً. ويقول المؤرخ «يلينوس» أن سكانها تفردوا بصناعة الخمور الجيدة التي كانت تلقى رواجاً عظيماً في منطقة البحر المتوسط حيث كانت تباع بوزنات من الفضة، كما اشتهروا بصناعة الحرير وانتاج أجود أنواع الزيت والزبيب.

وكذلك كان أهل بيروت المدعوة في ذلك العصر «المستعمرة جوليا أوغستا السعيدة» يقيمون فيه أنصاباً لملوك روما، ومن جملة ذلك نصب للقيصر أدريانس استخرج محطماً من تحت الردم عام ١٨٩٧ وكتب عليه: «[للامبراطور] القيصر الإلهي. وابن [طر] يانس الفرطي الإلهي وحفيد نرڤا الإلهي. لطرايانس أدريانس أوغسطس. الحبر الأعظم بسلطة ممثلي الشعب. قنصل للمرة الثالثة. اب الوطن. المستعمرة جوليا أوغيستا السعيدة بيروت».

وقد وجد في مجموع كتابات وادنغتون الإنكليزي في جملة آثار بيروت كتابة تشبه هذه الكتابة كل الشبه، كأنها هي إلا في تتمة الألفاظ المختصرة، وكان أهالي بيروت رسموا منها نسختين في وقت واحد.

معبد جونو ـ عشتروت

وكانت المرتبة الثانية في هيكل دير القلعة بعد المشتري بعل مرقد للإلهة «جونون الملكة»، وكانت تعد زوجة للإله وشريكته. فإلى جانب معبد مرقد وعلى

مسافة قريبة منه اكتشفت مديرية الآثار في التنقيب الذي قامت به منذ عهد الاستقلال على يد مديرها الأمير موريس شهاب، بقايا معبد «جونو» الذي شيده الرومان في القرن الأول بعد الميلاد. وقد جرى إعادة بناء ما أمكن من أحجاره المهدمة كبوابة المدخل والأدراج المؤدية إلى داخله وترميم المذبح والأدراج المؤدية إليه من الداخل، حيث وجدت أمامه طاولة حجرية كانت تنحر عليها الذبائح التي تقدم للآلهة جونو وهذا يستدل عليه من القناة المحفورة في جانب من هذه الطاولة حيث كانت تسيل دماء الذبيحة. أما جدار المعبد فقد جرى ترميم قسم منه، ومازالت حول المعبد كمية من الأحجار على بعضها نقشت كتابات لاتينية، ونصب حفر عليه اسم الإلهة «جونو».

وكان عبدة «جونو» يأتون هيكل دير القلعة لينالوا الشفاعة بحماسها كما دلت بعض الكتابات التي نشرها الفرنسي كليرمان غانو (في كتابات عديدة لاتينية تتضمن تقادم ونذوراً من جانب الأهالي لهذه الإلهة، من ذلك ثلاث كتابات نقشها جندي روماني يدعى أغايوس يوليوس مكسيموس نشر منها العلامة غانو اثنتين، ووجدت الثالثة أواخر القرن الماضي في حديقة الفونس نقاش في بيت مري، وهي مكتوبة على حجر وفحواها: «أن الجندي المذكور يبرز نذره للإلهة جونون بطيب قلب».

الحمامات

اكتشفت في الجهة الشرقية من الدير، وكانت تغطيها طبقة كثيفة من التراب نمت فيها أشجار السنديان. يعود تاريخها إلى العهد البيزنطي في القرن الثاني بعد الميلاد، وهي مبنية بطريقة فنية تدل على ذوق ومهارة. ترتكز أرضيّتها على مجموعة أعمدة موزعة عى مساحة واسعة وتتألف من قطع الآجر الأحمر المستديرة الشكل. وتمتاز هذه القطع المصنوعة في الساحل الفينيقي بمقاومتها للاحتراق وباختزانها للحرارة أطول وقت ممكن. فكان الأقدمون يشعلون النار في الموقد بواسطة فتحة مؤدية إلى داخل الأعمدة فتتوزع الحرارة تحت أرض الحمامات حتى تصل إلى البلاط والرخام الذي يغطي أرض غرف الاستحمام، وإلى المياه المخزونة في أحواض. وإلى اليوم ما تزال هذه الأحواض في حالة جيدة، ومما يدعو إلى

الدهشة ظهور أنابيب خزفية في داخل جدران الحمامات متصلة بالموقد فكانت الحرارة تصل إلى هذه الجدران بواسطة تلك الأنابيب كما هو متبع اليوم مع فارق التطوير ويبدو أن هذه الطريقة اقتبسها الأتراك عن العرب الذين أخذوها من البيزنطيين بعد استيلائهم على القسطنطينية وصارت اليوم تسمى «حمامات تركية». هذه الحمامات شبيهة إلى حد كبير بحمامات روما الأمبراطورية، مما يدل على أن بيت مري كانت مقصداً لكبار الحكام وعظماء القوم.

وعلى بعد ٣٠٠ متر من الحمامات ظهرت في مكان مرتفع خزانات أربعة متصلة بالحمامات، وقيل إن مياه هذه الخزانات كانت تجري إليها من نبع العرعار (العرار) الواقع فوق بلدة بعبدات بواسطة قناة. وبالطبع كان يستعان أيضاً، بمياه الأمطار لملء الخزانات. وقد أثبتت الحفريات وجود آبار عدة لخزن المياه، وإلى الآن ما تزال في حالة جيدة.

المدينة

إلى جوار الحمامات اكتشفت مساحة واسعة تبلغ نحو عشرة آلاف متر مربع دلت الأحجار والمداخل والمساكن والأعمدة والأساسات الظاهرة فيها على أنها المكان الرئيسي للمدينة. وقد عثر في داخل هذه المنطقة على معاصر وأحجار رحى وبرك وأوانٍ فخارية وأجران بعضها كان يستعمل للحدادة، وعلى نواويس بعضها محفور في صخور ثابتة محيطة بالمدينة، وبعضها الآخر محفور في أحجار ضخمة مستطيلة، وأغطيتها قطعة كاملة من الحجر. والظاهر من الآثار يدل على أن المدينة كانت مقسمة إلى أقسام عديدة (مساكن، حمامات، متاجر، معاصر...) ويروي بعض المؤرخين أن سوقها التجاري كانت في أشهر الأسواق لاحتوائها على مختلف الأطعمة والسلع التي يحتاج إليها ويتذوقها الزائرون.

الكنيسة البيزنطية

وعلى بعد ٢٥٠ متراً من شمال شرق المعبد الكبير اكتشفت بقايا كنيسة بيزنطية بنيت في القرن السادس للميلاد، تكسو أرضها الفسيفساء التي تحتوي على

رسوم ملونة لمختلف أنواع الطير والشجر، كالبط والحجل والسنونو والطاووس، وكالبلوط والأرز والزيتون والكرمة. ولم يبق من هذه الفسيفساء الرائعة سوى جزء في الجهة الشمالية في صحن الكنيسة بقياس ١٥ متراً طولاً و١١ متراً ونصف المتر عرضاً، ووجد بين الأنقاض حجر منقوش عليه رسم الصليب.

كما نقش على هذه الفسيفساء كلمات باللغة اليونانية دلت على أن هذا الصرح كان يسمى كنيسة مار يوحنا. والشيء المذهل الذي يطالعك من بين هذه الرسوم هو رسم الصليب المعكوف (السواستكا) وهو رمز قديم للشمس.

دير مار يوحنا

بدأ بناء دير مار يوحنا ـ القلعة عام ١٧٥٧ باهتمام من القس سمعان عريض من قرية قتالة، والقس إبراهيم عون من قرية رومية المتن، الذي سافر إلى أوروبا للمعونة، فكان يرسل ما يجمعه إلى الرهبان ليبنوا الدير. فشيدوا أولاً القبو الكبير (المتحف اليوم) الممتد من أمام كنيسة الدير جنوباً إلى قبور الكلار، وأقاموا فوقه الغرف والرواق الطويل. ولكنها من البناء المعقود (تاريخ الرهبانية الأنطونية). وهذا الدير مبني من انقاض القلعة وفي مكانها. أما كيفية انتقال ملكية القلعة والأرض المحيطة بها إلى الرهبانية الأنطونية فقد دلت عليها الوثيقة التاريخية التي سلمها الأمير الدرزي يوسف مراد اللمعي (كانت بيت مري إذ ذاك تابعة لولايته) للقس سمعان عريض (الرئيس العام المذكور) والتي بموجبها وهب القلعة والأرض المحيطة بها إلى الرهبانية الأنطونية. وهذا نص الوثيقة:

بسم الله الرحمٰن الرحيم وبه نستعين

هذا ما تعهدنا به على أنفسنا إلى القس سمعان عريض الرئيس العام ورهبانه الأنطونيين أن يعمروا ديراً جديداً في بيروت العتيقة في أرض قريبة من بيت مري. وأشرطنا لهم على أنفسنا برضى وقبول أن نبتاع القلعة وأرضها من أصحابها ونوهبها لهم هبة لا ترد ولا نكلفهم من ثمنها شيئاً. وما يلزم من الخشب الكبير لا نكلفهم من ثمنه شيئاً. ونعمل لهم بئراً للماء، ومن كيسنا حفره وبنيانه. ونعمل لهم أتون

من كيسنا. ووهبنا لهم ربع مزرعة عين الباردة من غير ثمن يعملوها ويأخذوا نصف غلتها. والسليخ التابع المزرعة يتناولون ريعه بتمامه. ونعطيهم ممشا فدان في البقاع بغير قسم. وشرط عوايد الدير الماعز تكون بلا عدد. والتوت والكرم وجميع أملاكه بنصف ميرة. والمسطرة مسطرة الضيعة. والشركاء إن كثروا أم قلوا بنصف أسامي. وإذا أرادوا قنية الرزق في الساحل نساعدهم ونأخذ الرزق مشرك في ما بيننا وبينهم. والتجري مرفوع عنهم منا ومن أولادنا ومن زلمنا. وإذا أحد تسطى عليهم أم على سحتهم نطلع من حقه، ويكون لهم علينا الحماية والرعاية بكل شيء. ومزرعة عين الباردة بريها متروك دهراً وهو الذي تعهدناه على أنفسنا ورضينا أن يكونوا مقيمين في هل المطرح مدة الدهر. لا يصير تغيير ولا تبديل لا منا ولا أولادنا ولا أحد من سلالتنا. وكتبنا لهم هذه الحجة الصحيحة الشرعية على أنفسنا برضانا واختيارنا من غير كره ولا إلزام. وأعطيناهم على ذلك قول الله ورأي الله والخاين يخونه الله. لا تغيير ولا تبديل في ما نحن ذاكرين. وحررنا هذه الوثيقة لأجل البيان سنداً بيدهم لأجل الاحتياج إليها. وخطنا هذا وختمنا يشهد علينا والله أكبر الشهود.

حرر ذلك وجرى في شهر شوال سنة ١١٦٢ هجرية. وأمرنا كل من أراد يحط شهادته في هذا الصك فهي مقبولة علينا.

(الختم) كاتبه على نفسه صحيحاً

يوسف مراد

وفي ما يلي نسخة عن إحدى الحجج التي بمثلها كان الأمير يوسف يبتاع الأراضي ويهبها للدير.

«بسم الله الرحمٰن الرحيم وهو حسبي وبه أستعين،

هذا ما اشتراه حضرة السيد المكرم المحترم الأمير يوسف وهي شقفة أبو حسين أحمد النجار في دار القلعة بثمن معين أربعين قرش من القروش الراشدية الكبار والكاملة والوزن والعيار. قبضت من يد جنابه إلى يد البائع المذكور، ولم

تبق من ذلك درهم فرد. وصار الملك ملك الشاري دون ملك البائع المذكور. يتصرف به الشاري حيث أراد. وحدود ذلك ما فوق شقفة المذكور ابن حسين أحمد. وما جاء من شفعة أم تبعة فهو لازم ذمة البائع المذكور. وما جاء من مال مولانا السلطان فهو لازم ذمة الشاري.

تمت حدود ذلك تحريراً في شهر سفر ١١٥٤.

شهد بصحة ذلك	محرر الأحرف
قيد بيه النجار	«يقضان يقضان».

كنيسة مار يوحنا

أما الكنيسة القائمة إلى جوار الدير، فهي مبنية على جدار المعبد الكبير «بعل مرقد».

يبلغ طولها ٣٢ متراً وعرضها ١٦ متراً. وقد نقش فوق عتبة بوابتها الغربية تاريخ بنائها (١٧٦٢) واسم مؤسسها (القس إبراهيم عون). وقيل إن الكنيسة أعيد بناؤها بعدما تهدمت.

وقبل بناء الكنيسة كان الآباء يقيمون الصلوات في القبو الكبير المسمى قبو «مار أنطونيوس» وهو أول قبو بناه الرهبان. ولا يزال المذبح القديم قائماً في صدره.

الفصل العاشر

عرقة

على أطراف السهل الخصب لعكار، بين بلدتي الحاكور ومنيارة، يقع تل عرقة الأثري بعدما اختاره البحر ليكون منزلاً له على اليابسة فكان جوهرته المفقودة.

يعتبر التلّ من أقدم المراكز الموجود، في لبنان مثله مثل مدينة جبيل، وربما كان أقدم منها، ومن الأماكن الأثرية المعروفة لكنه أقل شهرة من غيره بسبب موقعه المنعزل في منطقة الشمال والتأخير في بدء أعمال التنقيب (سنة ١٩٧٢)، لنبش التاريخ من رحم الأرض. تصل تلّ عرقة عبر طريق ترابية، عند جسر عرقة القديم، وهو يبعد عن بيروت نحو ١٠٠ كلم، وعن طرابلس ٢٢ كلم، وكان الممر الوحيد بالنسبة للشعوب القديمة في البحر إلى سوريا، ومن هذه الشعوب المصريون القدماء سنة الذين سيطروا عليه حتى سنة ١٣٥٠ ق. م. وتدل رسائل تلّ العمارنة إلى أن الملك عشترتا كتب رسالة للفرعون أمنحوتب الثالث سنة ١٣٧٥ ق. م. في بلدة أرقة الفينيقيّة، أي عرقة، بعدما سيطر عليها قبل أن تنتقل إلى سلطة الأشوريين ثم اليونانيّين فالرومان، وفي هذا العهد بلغت أوج ازدهارها خصوصاً وأن الملك اسكندر سويروس ولد فيها وحكم منها.

والذي يدلّ على ازدهار عرقة في الزمن الغابر كبقيّة المناطق الأثريّة المهمة أنها كانت في حقبة الكنعاييّن من المدن المستقلة الصغيرة التي تكفل نفسها بنفسها، هي وطرابلس والبترون وبيبلوس وبيروت وصيدا وصور. وفي نهاية القرن الرابع ميلادي انقسمت فينيقيا إلى قسمين وكانت عرقة من المدن الرئيسيّة في القسم الأول، إلى جانب عكا وصيدا وبيروت وجبيل والبترون وطرابلس وأرواد، ومركز هذا القسم كان في صور. وسنة ٦٦٩ م نقل إليها معاوية جماعات من فارس ليسكنوا مكان الروم الذين هاجروها بعد الفتح الإسلامي. وسنة ٩٦٨م انتزعتها بيزنطيا من الحكم الحمداني، ووصفها الجغرافي الفارسي ابن خردازبة في القرن العاشر بالحصون المنيعة.

أشار العالم الفرنسي أرنست رينان إلى الموقع سنة ١٨٦٠ خلال بعثته المشهورة لفينيقيا واكتشف يومئذٍ حسب ما سجله حقلاً لآثار عظيمة في وسط سهل واسع وأبنية رومانيّة.

وأكد العالم الأثري موريس دونان أن موقع هذه المدينة جعل منها مركزاً لعقد اتفاقات محلية مهمة، فضلاً عن شهرتها بهياكلها الشامخة وصكّ النقود.

أما الأسباب التي أدت إلى هدم المدينة التاريخيّة تعرضها كبقية المناطق للزلازل العديدة والحروب. وكان كل شعب جديد يقصدها للإقامة يبني على أنقاض الشعب الذي سبقه.

بدأ التنقيب عن آثار عرقة سنة ١٩٧٢ من جانب معهد الآثار الفرنسي للشرق الأوسط، وتوقف سنة ١٩٧٥ لتستأنف عملية التنقيب سنة ١٩٧٨، وتتوقف مجدداً سنة ١٩٨١ بسبب الظروف الأمنية في لبنان. وبعد مرور إحدى عشرة سنة واستقرار الوضع الأمني، استأنفت البعثة من جديد سنة ١٩٩٢ أعمال التنقيب لمدة شهرين من كل عام.

وحددت الحفريات موقع عرقة الأثري بـ ٣ محاور هي: التلة، المدينة، التحتا، ومدينة الأموات.

أجريت في التلة تنقيبات منتظمة طالت ما تبقى من نهاية العصر البرونزي القديم (٢٤٠٠ ـ ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد). ومن المؤكد أن هذا الموقع يعود إلى أبعد من هذا التاريخ بكثير، فهناك عشرات الأمتار من الرواسب الأثريّة في حاجة إلى التنقيب للوصول إلى بقايا وآثار بدايات وجود الإنسان على الأرض والذي يعود للعصر النوليتي الحجري، أي إلى ٧ آلاف سنة قبل الميلاد.

ويؤكد العالم جان بول تالمان الذي عمل في الموقع منذ بدء أعمال التنقيب أن الوجود البشري في هذا الموقع يعود إلى العصر النوليتي أو الحجري الحديث (الألف السادس ق. م.)، ويشير إلى أن هذا التلّ يتألف من ٤٠ أو ٥٠ متراً من

الطبقات الأثريّة التي تمثل التاريخ المتتالي للموقع، وهي على شكل قالب حلوى Mille feuilles مصنوع من مجموعة طبقات كل طبقة تمثل حضارة. وكان التلّ آلة تعبر الزمن ما يسمح بالوصول إلى حقبات زمنيّة مختلفة قد تداخلت ببعضها بطريقة دائمة.

في هذا التل وجدت البقايا الأثريّة الأكثر قدماً، والمراحل الأساسيّة والمعروفة أثرياً فيها هي: العصر البرونزي الأوسط الذي يمتد من سنة ٢٠٠ إلى ١٥٠٠ ق. م. الحقبات الفينيقيّة من ٩٠٠ إلى ٧٤٠ ق. م. الهللينيّة في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد، والحقبات التاريخيّة البيزنطيّة من القرن الرابع حتى السادس م. والقرون الوسطى. ويستطيع أي شخص أن يميز بدقة البقايا الأثريّة من هذه المراحل في ورشة العمل الرئيسيّة من الناحية الغربيّة للتلّ.

أما المدينة التحتا التي تمتد من السهل حتى شمال التلّة فيعود تاريخ وجودها إلى الحقبة الفينيقيّة في القرن العاشر قبل الميلاد، وعليه بنيت المدينة الرومانيّة التي ولد فيها الامبراطور اسكندر سويروس في القرن الثالث للميلاد، وكان امبراطور روما من سنة ٢٢٢ وحتى تاريخ وفاته سنة ٢٣٥.

وتقوم مدينة الأموات على التلال المجاورة للتلّ في اتجاه الشرق والجنوب والجنوب الغربي، وكانت تحتوي على قبور عدة محفورة ومنحوتة في الصخور، يعود تاريخها للعصر البرونزي والحقبتين الرومانيّة والبيزنطيّة. وعلى الرغم من سلبها ونهبها لا تزال آثارها ظاهرة. وتعتبر مدينة الأموات هدفاً للدراسة والمسح المنهجي كالمدينة التحتا.

تلّ عرقة أضحى منذ سنة ١٩٧٠ ملكاً للدولة اللبنانيّة، ويرجح تالمان أن تكشف التنقيبات المتواصلة عن معطيات مهمة وأن تغيّر المعلومات التاريخيّة خصوصاً وأن هناك بستان زيتون تحت الموقع يؤكد تالمان أنه يحتضن مدينة رومانيّة وهو يخشى التوسع العمراني في المنطقة والذي قد يحول دون اكتشاف هذه المدينة أو المحافظة على التلّ الذي لم يبق مثله الكثير في لبنان إلاّ اثنان أو ثلاثة.

وعرقة تعتبر الأهم لاحتوائها على كنوز لا تحصى ولا تعد من التماثيل المزنرة بالذهب (سرقت وبيعت للخارج). ومدفن جماعي من العصر البرونزي الأوسط، أي نحو ١٥٠٠ ق. م. فيه عظام تعود لـ ١٢ شخصاً، كل واحد منهم دفن مع هدية: إناء، وإبريق، ومدافن للأولاد محفورة في داخل المنازل في أجرار كبيرة (كانت تكسر رقبة الجرة وتوضع بشكل أفقي ثم يوضع في داخلها الميت ويقفل عليه مع ألعابه بجرة أخرى)، وغيرها من آثار الحياة المدنية للأفراد في تلك الفترة.

الفصل الحادي عشر

عنجر

من زوايا الزمن ومن عبق التراب المرشوش من آلاف السنين في عنجر حكاية حضارة وتراث تكاد تكون بدايتها مثل نهايتها مجهولة. هذه المملكة الصغيرة التي وهبها ذات يوم، القائد الروماني أنطونيو إلى الملكة كليوباترا تعبيراً عن حبه لها تقع في منطقة البقاع على الطريق الذي يربط حمص ببعلبك من جهة، وطبرية وجبل لبنان حتى دمشق من جهة ثانية، وتحتل رقعة كبيرة من أرضنا حيث تبلغ مساحتها ١١٤٧٠٠ م^{٢}.

أصل التسمية عربي ويعني عين الجر، أي المياه التي تنساب من الصخور وذلك بسبب تكاثر الينابيع في تلك المنطقة، بحيث تفيض عن الحاجة المحلية فتغذي نهر الليطاني. عنجر بقيت مجهولة في الأوساط الأثريّة حتى سنة ١٩٣٨ حين اكتشفها عالم الآثار دانيال كرنكر وعرفنا بمعالمها بشكل واضح، مما دفع بمديريّة الآثار اللبنانيّة العامة للاهتمام بها. فأوفدت هيئات علمية للقيام بأعمال الحفر والتنقيب وإجراء الصيانات المحدودة واللازمة لإضفاء الصبغة التاريخيّة على الموقع وإبراز شكله. والجدير بالذكر أن موريس شهاب قام بمهمة رئاسة الهيئات التي عملت في عنجر لمدة تجاوزت الخمس وعشرين سنة، وكشف عن معالم مجمّع سكني هائل.

وعلى الرغم من أعمال الحفر والتنقيب والدراسات حول هذا الموقع المهم والحساس، والذي كان ممراً للقوافل، فإن ماضيه الذي سبق الإسلام وتحديداً الأمويين، بقي معتماً وغير معروف، مع أن الزائر لمدينة عنجر يلاحظ وجود عناصر معمارية في قلب هذا المجمع تحتوي على أعمال تعود لعصور قديمة، وعلى سبيل المثال نذكر بعض الأعمدة وتيجانها التي تحمل معالم الفترة الرومانيّة. ومن المرجح أن الذين بنوا عنجر أتوا بجزء من الآثارات المنتشرة في أرجاء البقاع منذ العهد الروماني ـ البيزنطي إلى هذا الموقع.

باختصار، ما يمكن تأكيده أن عنجر لم تسكن بشكل يلفت الانتباه إلا في الفترة الإسلامية الأولى حيث ورد اسم عنجر في كتب سريانيّة وعربيّة تحكي عن الخليفة الوليد الأول الذي قرر هو وابنه العباس في بداية القرن الثامن للميلاد بناء مركز تجاري وترفيهي على طريق القوافل الممتدة من الشاطىء وحتى عاصمتهم دمشق، فأسس مدينة وأسماها عنجر. وما يُظهر بوضوح أن بناء المجمع السكني يعود إلى القرن الثامن وجود كتابة عربيّة تحمل تاريخ ٧٤١ ميلادي في مكان يقع بين البرجين الرابع والخامس، لو أحصينا الأبراج ابتداء من الزاوية الجنوبيّة الغربيّة للسور الخارجي للقلعة. وتشير أسطورة تعود إلى القرن التاسع الميلادي إلى أنه على بعد بعض الكيلومترات من عنجر توجد بحيرة يقال أن سفينة نوح رست عليها بعد الطوفان. وأسطورة أخرى تقول أن سفينة نوح انطلقت من عنجر. على كل حال، الأسطورة تبقى أسطورة غير علميّة ولا تدخل ضمن واقع وتاريخ عنجر.

عنجر، هذا المجمع السكني المستطيل الشكل، يقع ضمن سور طوله ٣٧٠ متراً وعرضه ٣١٠ أمتار. أما السور إياه فتقطعه أربعة أبواب من جهاته الأربع، ومما يذكر أن هذه الأبواب صمّمت بحيث تكون متقابلة: الشمالي منها يواجه الجنوبي تماماً. وكذلك وضع الباب الغربي مع الباب الشرقي. غير أن هذه الأبواب، ولأسباب كانت موحية في بنائها لا تتلاقى في العراء فحسب، وإنما يربط في ما بينها معبر داخلي، يقع تحت الأرض، ليتقاطع الممر الواصل بين الشرق والغرب مع الممر الثاني المؤدي من الشمال إلى الجنوب عند نقطة بشكل ساحة صغيرة تؤلف وسط المدينة، وهي على شكل ٤ مربعات، كل مربع يتألف من أربعة أعمدة لم يبق منها إلا مربع واحد عليه تيجان منحوتة تعود للقرن الثاني أو الثالث للميلاد، وتذكرنا بأقواس النصر في العهد الروماني ـ البيزنطي. فنحن على هذا أمام معبرين متقاطعين، على صورة صليب تماماً، والناتج عن تقاطع هذين المعبرين. إن عنجر أو ما أسميناه المجمع السكني، صارت تقسم إلى أربعة أقسام متساوية، مثلما شكل الصليب لو وضع ضمن داخل إطار مستطيل. وعلى جانب هذين الممرين شيّد نحو ٦٠٠ دكان لتنشيط الحركة الاقتصاديّة (والعملة المتداولة كانت الفلس الأموي)، وفي وسط الممرين شبكة مجارير لتصريف مياه الشفة

والاغتسال تصل إلى خارج السور. وعلى امتداد السور توجد ٢٨ قنطرة موزعة على مسافات متساوية، ويبلغ معدل سمك جدران السور ما يقارب المترين. وهناك سلالم تسهل الصعود إلى سطح السور من الأركان الأربعة. أما الأروقة داخل المجمع فمزينة بأعمدة ودعامات تحمل أقواساً نصف دائريّة. وبنظرة سريعة إلى الأقسام الأربعة التي يتكون منها هذا المجمع، والتي تنفصل عن بعضها بممرين متقاطعين، نقف أمام التفاصيل التالية:

ـ القسم الجنوبي ـ الشرقي، وهو القسم الأهم. ويضم قصراً من أكبر قصور المجمع، ومسجداً يقع عن شماله مفصولاً عنه بطريق ضيق. هذا القصر كان خاصاً بالخليفة تبلغ مساحته ٤٢٠٠ متر مربع مبني بأحجار كبيرة الحجم، تتوالي فيه صفوف الأحجار مع ٣ صفوف من الآجر، وهي تشبه جدران الدكاكين التي تطل على الشارعين الرئيسيين. مدخل القصر الرئيسي مزين من الخارج بدعامتين مزخرفتين برسوم تمثل الأزهار، ويؤدي الممر الآتي من المدخل إلى باحة شبه مربعة تبلغ مساحتها ٧٢٦ متراً مربعاً محاطة بقناطر مرتفعة أما المسجد فلم يبق من معالمه شيء باستثناء بقايا أحجار مرمية كانت أسساً للجدران. وقد اكتشف في هذا القسم أيضاً خزان للماء كان يموّل المجمع السكني بأكمله.

ـ القسم الشمالي ـ الشرقي، ويحتوي أيضاً على قصر لم يكتمل بناؤه وعلى حمام و٢٠ غرفة ومساحة كبيرة من البناء، حتى لتبلغ مساحة هذا القصر ٢٢٥٦ متراً مربعاً، ويقال أنه خصص لزوجات الخلفاء وحاشيتهن من وصيفات وخدام، مزين بمنحوتات ورسوم مستوحاة بغالبيتها من الفن الروماني ـ البيزنطي، مثل رسوم للبومة والنسور والحمام وعناقيد العنب. ومن خلال دراسة الدلائل المعمارية في عنجر، يتبين أن هذا القصر بني في التاريخ نفسه الذي شيّد فيه القصر الأول، ولكن من قبل فرق معمارية وفنيّة مختلفة.

كما أننا نلاحظ في شمال هذا القسم وجود بناء لحمام أرضيّته مبلطة بالمرمر والموزاييك، ومبني على طراز الحمامات الرومانيّة على الشكل الآتي: غرفة للملابس حول نوافير المياه، غرفة المياه المعتدلة، وغرفة المياه الساخنة.

ـ القسم الشمالي ـ الغربي، ويضم قصراً مربعاً وغرفاً تحيطه من الجهة الشرقيّة، ولكن البناء الوحيد الذي ظهرت معالمه البنائيّة كاملة في هذا القسم هو عبارة عن حمام صغير وبئر ماء. أما المعالم المتبقيّة فما زالت مطمورة تحت التراب.

ـ القسم الجنوبي ـ الغربي، وأظهرت الحفريات قسماً كبيراً من معالمه، فهو يحتوي على مجموعة كبيرة من بيوت السكن ومبنى تتوسطه ساحة كبرى. يعتقد أنه كان خاناً لاستقبال القوافل التي كانت تتوقف للاستراحة في هذا المجمع.

وبعد هذه الرحلة عبر الزمن بين آثار عنجر يبقى أن نتساءل هل عنجر كانت فعلاً مدينة أو محطة استراحة القوافل؟ أو سوقاً تجارياً للبيع والشراء؟ أم مركز اصطياف واستجمام للخلفاء في ربوع لبنان؟.

كل هذه الأسئلة يبقى جوابها مدفوناً في تراب عنجر التي تملك العديد من الأسرار وتحمل موطىء أقدام كل الغزاة الذين مروا بعد الأمويين من عباسيين وصليبيين ومملوكيين وعثمانيين وفرنسيين.

أتراني قد استحضرت التاريخ في كلمة أو مقالة؟ لا أدعي ذلك! فليس سهلاً أن نحبس أزهار رابية في قمقم عطر!

إنما السهل، على ما أرى، أن تبادر الدولة إلى بعث ذلك التاريخ الحافل، فتستدعي الطاقات وتستنفر الإمكانات، من الاختصاص في رأس المؤرخ، والمهندس، حتى المعول في كف العامل... وغداتئذٍ يحق للدولة أن تقول وبالفم الملآن أن الحاضر هو حصيلة تاريخ ولا أورع... كما أن مستقبلنا نتيجة حاضر مبدع!

الفصل الثاني عشر

بيت الدين

كل قطعة حجر أرساها إنساننا الأول على هذه الأرض تؤكد فضل أجدادنا على الحضارة الإنسانية منذ وجدت ولغاية الآن. . وليس قصر بيت الدين إلا صرحاً من تلك الصروح التي لن تغيب عنها الشمس. . تؤكد حجارته الآن وغداً وفي كل وقت أن هذه البلاد هي أم العالم. . وأن التاريخ الذي يبدأ من أرضنا لا بد وأن يبقى عليها شاهداً بأنّ في شعبنا قوة لو فعلت لغيرت وجه التاريخ.

قصر بيت الدين الدليل المثالي للهندسة اللبنانية في القرن التاسع عشر، بناه الأمير بشير الثاني الذي كان يملك في بيت الدين أراضٍ ومنزلاً للسكن مبنياً على صخرة ويحيط بجهاته الثلاث وادٍ ضيق، فقرر أن يوسع ذلك المنزل ويحوّله إلى قصر فإذا به ينشىء سرايا يبلغ طولها ٢٠٠ متراً ويمتد عرضها إلى مساحة الصخرة كلها التي مهدت قبل ذلك.

قصر بيت الدين أو منزل الإيمان هو أحد الكنوز الوطنية اللبنانية، ومثال لفن الهندسة الشرقية في القرن التاسع عشر.

مع نهاية القرن السابع عشر انتقل زمام الحكم في لبنان من المعنيين إلى الشهابيين أمراء وادي التيم، وتبعاً للعادات والتقاليد التي كانت أساس الحكم في لبنان، اعترف الاقطاعيون بالشهابيين، وقام السلطان العثماني بمنحهم امتيازات عديدة فامتدت قصورُهم في أرجاء دير القمر.

وقد اعتبر الأمير بشير الشهابي الثاني أكثر الحكام الشهابيين إرادة واستقلالية في الفترة الممتدة ما بين ١٧٨٨ و١٨٤٠ والذي تميز حكمه حسب التاريخ بالعدل والمساواة، فتمكّن من إعادة تنظيم بلاده انطلاقاً من بيت الدين، فنظّم الإدارة وجعلها مركزية وقمع أعمال السلب وقام بالعديد من الإصلاحات وأوجد نظاماً ضريبياً عادلاً كي يتمكن من تمويل جيشه وتنفيذ الأشغال العامة، كشقّ الطرقات وغيرها. . .

ومن الإصلاحات التي قام بها استبدال العمامات بالطرابيش وتعديل الزي التقليدي.

وساهم امتداد السلطة لدى الأمير بشير الثاني إلى توسيع ممتلكاته، فشيّد قصراً في بيت الدين يبعد مسافة خمسة كيلومترات عن دير القمر ويحتل موقعاً مشرفاً على أودية فسيحة ويليق بمركز الأمير وسلطته المضطردة.

استمر العمل في هذا المكان الذي يشرف على سهل الدامور ويصل بيت الدين بدير القمر نحو ثلاثين سنة من الأشغال المتواصلة، منذ سنة ١٧٨٩ حتى سنة ١٨٢٢، وظل هذا القصر مركز الأمير ومقرّه الدائم حتى تمّ نفيه سنة ١٨٤٠. بعد انهيار الإمارة عام ١٨٤٢ استلمه ورثته حتى سنة ١٨٦٢، وبعد وفاته في القسطنطينية عام ١٨٥٠ استولى عليه العثمانيون وجعلوه مقراً للحكام المتصرفين حتى سنة ١٩١٤.

وبعد الحرب العالمية الأولى، عُهد بالقصر إلى الإدارة المركزية، وعام ١٩٣٠ اعتُبر متحفاً تاريخياً، وفي سنة ١٩٤٣ قرر الشيخ بشارة الخوري جعله مقراً رمزياً فأعاد إليه ممتلكات الأمير بشير الثاني وأمر بترميمه.

وبعد انتهاء الأعمال استعاد القصر مكانته المعهودة بأجزائه الثلاثة الرئيسية:

دار «البرانية» أو المقر الخارجي، دار «الوسطى» أو المقر الأوسط، دار الحريم أو المقر الخاص، إضافة إلى الحدائق والحمّامات.

أما المتحف فقد دُشن سنة ١٩٥١ وتُعرض فيه اليوم آثار تعود للعهد الكنعاني ـ الفينيقي وأوانٍ معدنية قديمة ومجوهرات وأسلحة ووثائق تعود للقرون الوسطى وبعض الثياب التقليدية الفولكلوريّة اللبنانية، التي تستحق أن نستعرض بعضها حيث كان اللباس التقليدي عند نساء المنطقة عبارة عن تسريحة شعر يغطيها طرطور على شكل مخروط مرصع بالذهب والأحجار الكريمة، ويتم تركيزه على الرأس بأربع شكلات وتتدلى منه قطعة من القماش الناعم تصل إلى العنق والكتفين. ويزداد ارتفاع الطرطور مع ارتفاع المركز الاجتماعي للمرأة.

ويوم الزفاف تضع العروس الطرطور على رأسها ليصبح لباس الرأس الدائم.

ويتألف هذا القصر من عدة أقسام أهمها: الميدان وهو الفناء الداخلي والبناية الخارجية، البناية الوسطى، وقسم الحريم وهو جناح النساء، والاصطبلات.

١ ـ **الميدان والبناية الخارجية**: ويتألف هذا القسم من جناح واسع جداً وهو يضم عدة حجرات وطابقاً يرتفع على الحجرات التي تشغل القسم الأوسط، وكان يمر بهذا القسم رواق طويل يؤدي إلى ساحة رحبة تبلغ مساحتها ٩٠ متراً مربعاً تشرف إحدى جهاتها على الوادي، وعلى هذه المساحة كان الشبان يتمرنون على ألعاب الفروسية وينظمون المباريات وينشدون الأغاني الجبلية أو يتساجلون في الأشعار والأزجال، وفي كل يوم أمام باب القصر كان يُقدم الطعام لأكثر من ثلاثمئة شخص، كما يقول السياح العديدون الذين زاروا القصر ولاقوا من أميره ضيافة سخية تتلاءم مع التقاليد اللبنانية. كما يوجد في هذا القسم غرف تعلوها قباب كانت مخصصة لاستقبال مدعوي الأمير.

٢ ـ البناية الوسطى.

من الفناء الرحب ينتقل المرء إلى البناية الوسطى بواسطة درج مزدوج سمي بالدرج «القلاب» وباب مزخرف يؤدي إلى رواق يحتوي على مقاعد حجرية كان يجلس فيه رجال الحرس وقد ارتدوا ثيابهم اللبنانية وتسلحوا بالسيوف أو الحراب الطوال، وكلّلت رأس زعيمهم عمامة كبيرة. وهذا الرواق الذي يطلّ على الوادي، وتطل جهة أخرى على «الحرم» والجهتان الباقيتان تطلان على الأجنحة الأربعة التي تؤلف هذا القسم من السراي. وفي الوسط بركة ترد إليها المياه من عين الصفا وتتعالى من نافورتها إلى ارتفاع خمسة عشر متراً. وقد كانت تشغل هذه البناية الوسطى مكاتب الدوائر المختلفة، وفيها كان مقر مستشاري الأمير ورئيس الكتاب.

٣ ـ الحرم: ويتألف من خمسة أقسام رئيسية:

أ ـ السلملك أو قاعة الاستقبال، ويضم قاعة كان يقيم فيها عبيد الأمير فينقلون الأوامر إلى الغرفة المحاذية لها التي تسمى قاعة القهوة وإلى الغرفة الملحقة

بقاعة الاستقبال، وعلى جدران قاعة الاستقبال المزخرفة بالفسيفساء كتبت أشعار لبطرس كرامه الذي كان الأمين الخاص للأمير وشاعره الرسمي. وفي هذه القاعة كان الأمير بشير يستقبل ضيوفه البارزين.

ب ـ القسم الداخلي للحرم ويتألف من عدة عرف تطل على باحة فيها حوض ونافورات تتعالى منها المياه، وتزيد في جمال هذا الجناح الحنايا والقناطر الجميلة، وفي جانبه رواق مزخرف زخرفة بارعة يؤدي إلى غرفة الأمير الخاصة.

ج ـ المطابخ وكانت تجهز كل يوم في غرفها الواسعة طعاماً مُعدّاً لأكثر من خمسمائة شخص.

د ـ القسم الأعلى للحرم ويقع بين السلملك والحمامات، فوق المطابخ. وهو يتألف من باحة رحبة مفتوحة حولها غرف عديدة وواجهة تطل على البناية الوسطى.

هـ ـ الحمامات وتؤلف من الوجهة الهندسية نموذجاً من أجمل نماذج الحمامات الشرقية، وهي تتألف من غرف عديدة فسيحة تغطي الفسيفساء أرضها وأكثر جدرانها، وتقوم قبابها على حنايا عديدة، وكان للأمير ميل خاص إلى هذه الحمامات، يقبل إليها في أصيل كل يوم مع حاشيته فيدخن في غرفة الراحة غليونه المسمى بالشُبُق. ولم يكن لهذه الحمامات أي نوافذ للحفاظ على درجة حرارتها وكانت سطوحها على شكل دائري تسمح بانبعاث نور النهار إلى الداخل عبر مساحات زجاجية أو خلف في المساحات الدائرية.

٤ ـ الاصطبلات وتشبه هذه المجموعة العديدة ذات الأسطحة المعقودة التي يرتكز عليها نصف القصر غابة حقيقية، وقد كان في هذه الغرف قديماً ثكنة يأوي إليها خمسمائة فارس وأكثر من ستمائة جواد عربي أصيل، فاختار الأمير بشير من بينها عشرين جواداً هي أجملها على الإطلاق وأرسلها بقيادة ابنه الأمير أمين هدية إلى أمير مصر محمد علي الكبير لشكره على الضيافة الكريمة التي أحاطه بها وعلى مساعدته إياه لدى الباب العالي في سنة ١٨٢١، وإبراماً للمعاهدة السرية التي عقدها معه، وهي معاهدة تقضي بأن يساعد الأمير بشير إبراهيم باشا في حملته

على سورية، وقد بلغ من أمانة الأمير لبنود هذه المعاهدة أنه فقد عرشه في سنة ١٨٤٠ وأسر ونفي وأعلن في سنة ١٨٤١ سقوط ورثته في حق التمتع بوراثة إمارته.

واليوم تعرض في الاسطبلات بعد ترميمها مجموعة من الموازييك تعود للعهد البيزنطي، تم الحصول عليها أثناء التنقيب عن الآثار في منطقة الجية، كما افتتحت فيها مكتبة تضم كتباً لرئيس الحزب التقدمي الاشتراكي الراحل كمال جنبلاط.

وفي البساتين المحيطة بالقصر يوجد ضريح الست شمس، أولى زوجات الأمير وأم أولاده الثلاثة الأمراء قاسم وخليل وأمين، وقد نقلت الحكومة اللبنانية رفات الأمير من اسطنبول إلى أرض الوطن سنة ١٩٤٧ ليرقد بسلام إلى جانب زوجته.

وقد رممت دائرة الآثار القصر وأثثته بالفرش العربي الفاخر وأعدته قصراً لضيافة العظماء من زوار لبنان ومصيفاً لرئيس جمهوريته.

المراجع

ـ دليل السياح (النص للدكتور حسان سلامة سركيس).

ـ "L'histoire du Liban à travers Les images"ـ نينا جيدجيان.

ـ «بيروت تاريخها وآثارها» ـ الآب لويس شيخو.

ـ «بيروت في التاريخ والحضارة والعمران» ـ الشيخ طه الولي.

ـ دراسة عن المسيلحة ـ الدكتور حسان سلامة سركيس.

ـ «تسريح الأبصار فيما يحتوي لبنان من آثار» ـ الأب هنري لامنس اليسوعي.

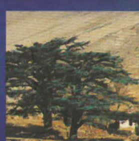
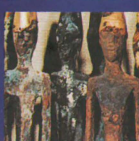
ـ «أعرف لبنان» ـ عفيف مرهج.

ـ «صيدا ٨٨» ـ الجنوب برس للصحافة والإعلان.

ـ مقابلات خاصة وأبحاث ميدانية.

ـ أرشيف جريدة «الديار».

المحتويات


Edito Creps
International